

حيوانات أيا منا

منتدى مجلة الإبتسامة

مايا شوقی



في هذا الكتاب:

غزلان قادرة على الطيران تتبخر،
وأسماءك تميز الشجر في رنين
الصوت. أفيال متبيلة للماء يجتاحها
الجنون، وخيول تميتها الرتابة
ويحييها الحلم. دبة تفقد أسنانها في
عشق النساء، وجواميس تتفجر في
غمرة التور. فراشات بحر تغري
وتغوي، وأتن يشعل حليبيها محارق
التاريخ. إنها ليست مجرد حيوانات،
بل حيوات، تتجاوز مثل شظايا المرايا
فتعكس صورة متسعة لإنسان
اللحظة، تهمس أو تصرخ بالروى،
مستلهمة وحدة التأليف في كتب
الترات، ومفارقة باستخدام تقنيات
الكتابة القصصية في لغة العصر.

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

محمد المخزنجي



حيوانات أياضا

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع 897676/2006

ISBN 67576567

• الرسوم والإخراج الداخلي: محمد حجي

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيويه المصري - مدينة نصر

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

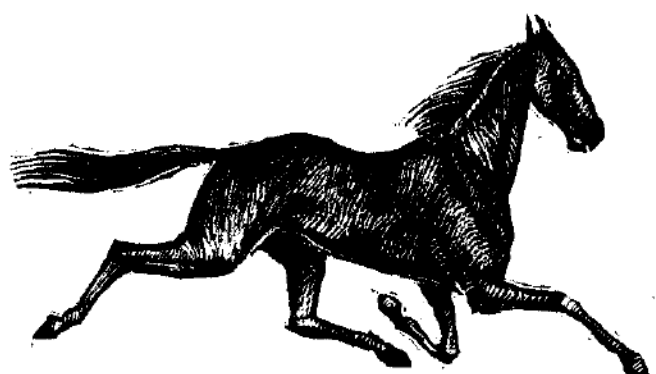
محمد المخزنجي

حيوانات أيا منا

(كتاب قصصي)

دار الشروق

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

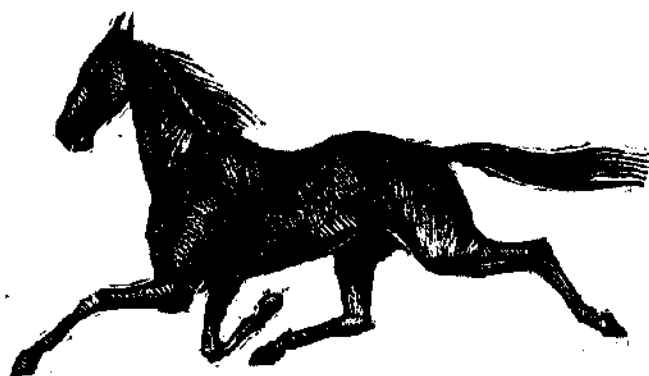


لمحتان

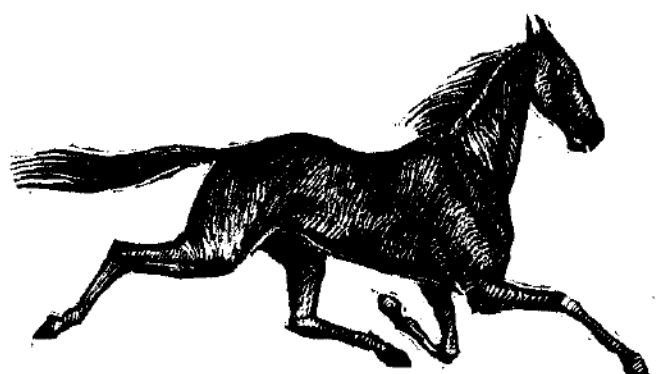
● «وأظنك ممن يرى أن الطاووس أكرم على الله تعالى من الغراب، وأن التدرج أعز على الله تعالى من الحداة، وأن الغزال أحب إلى الله تعالى من الذئب، فإنما هذه أمور فرقها الله تعالى في عيون الناس، وميزها في طبائع العباد، فجعل بعضها بهم أقرب شبها، وجعل بعضها إنسيا، وجعل بعضها وحشيا، وبعضها غاذيا، وبعضها قاتلا، وكذلك الدرّة، والخرزة، والثمرة، والجمرة، فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل».

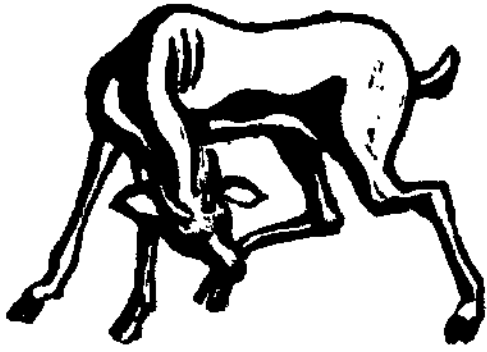
● «أو ما علمت أن الإنسان إنما سمّوه العالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل، ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصّفرّد، وجمع الدرّة، وصنعة الشّرفة، وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام، وربما وجدوا فيه، مما للبهائم والسباع، خلّقين أو ثلاثة، ولا يبلغ أن يكون جملا بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته، وصولته وحقده، وصبره على حمل الثقل، ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيا فيه من مثل غدره، ومكره، واسترواحه، وتوحشه، وشدة نكره».

(الجاحظ - كتاب الحيوان)



منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي





● عيون المها بين الرصافة والجسر / جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري. (علي بن الجهم)

● في بحث ميداني اكتشفت الدكتورة لاريسا كونرادت والبروفسور نيم روبرت أن المجموعة الديمقراطية الاستثنائية – وسط بحر من المجموعات الحيوانية الطغيانية – هي مجموعات الغزال الوردي، فلقد تبين لهما باستخدام نموذج حاسوبي للمقارنة بين أساليب اتخاذ القرار التي تحدد سلوك المجموعات المختلفة من الحيوانات البرية، وتأثيرات ذلك في الأفراد، أن هذه المجموعة الديمقراطية الاستثنائية لا تتحرك من المرعى إلا بعد أن يصل عدد الأفراد الذين رفعوا رؤوسهم عن العشب شبعاً، إلى نسبة ٦٢٪. كما أن هذا النوع من الغزلان عندما يجد مجموعة منه ترعى في مكان معين، يبحث عن مكان آخر للرعي بوداعة وفي هدوء. وتتوافق الغزلان على تنفيذ القرارات الديمقراطية السلمية هذه، كلها، بندايات خاصة من لغة الأجساد المتفق عليها بين أفراد المجموعة. (مجلة فوكس – العلمية)

غزلان

دخل المارينز إلى القصر بعد ليلة طويلة من برق القصف، ورعد الانفجارات، وصوت الحطام، ولهب الحرائق. دخلوا مع أول أشعة الفجر المثقلة بأدخنة كثيفة ورائحة أجساد تحترق، وكانوا منهكين وجائعين لكنهم ثملون بنشوات نصر لم يتصوروه يتحقق بهذه السرعة، وهو مازاد من شعورهم بالجوع ودفعهم لتمشيط أرجاء القصر الرئاسي وحدائقه بحثاً عن طعام، فوجدوا الغزلان هناك، ووجدوا الأسود أيضاً.

كانت الغزلان متجمدة من الرعب، في حضن شجيرات الأسيجة التي تتخلل ممرات حدائق القصر، فلم يجد المارينز صعوبة في الإمساك بها، وجرها إلى مكان الاحتفال في البهو الرئاسي، حيث أوقدت نار الشواء من خشب مقاعد محفورة بأمهر أيادي صناع الأثاث في العالم، ومطوية بطبقات من رقائق الذهب الفرنسي

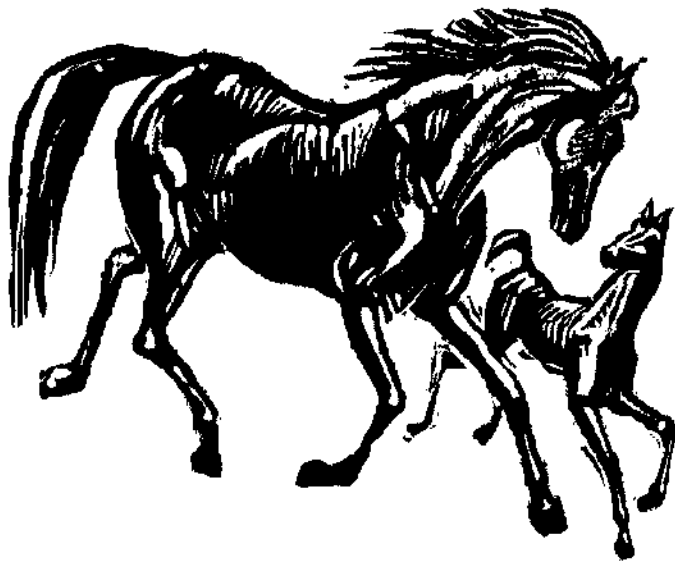
الخالص. وكان بعض أفراد المارينز قد اكتشفوا الأسود وهم يمشطون جنبات القصر، أربعة أسود في أقفاص من الصلب اللامع الذي لا يصدأ، تلوب جائعة في أقفاصها، وتزار بحناجر



أتلفها الجوع والدخان والغبار. كانت أسود ابن الرئيس التي تردد أنه يطعمها لحم من يغضب عليه. واقتراح بعض المارينز إبقاء شيء من لحم الغزلان، للتسلي بإطعام الأسود بعد انتهاء الوليمة.

ضاع الاقتراح في جلبة صخب المنتصرين، ورائحة الشواء الباذخ لعشرين غزالا من نوع المها العربي الأبيض المليء، وعشرة من ظباء الرمل البديعة التي تبدو كأنها خلقت من نسيم مرصع ببراعم الزهر. فما أن أشرقت الشمس حتى استحالت كل هذه الغزلان إلى

عظام بيضاء مسودة، ترقطها بقع شحيحة من بقايا اللحم المشوي، وبعد الامتلاء نعس كثير من المارينز في أماكنهم على المقاعد الوثيرة، ولم يوات النوم البعض فحملوا العظام إلى أقفاص الأسود، جاهلين أن الأسود تعاف اللحم المشوي، فهل تلعق الأسود رماد العظام؟! ■



● قيل لبعض الحكماء أي المال أشرف؟ قال: فرس يتبعها
فرس في بطنها فرس. (الدميري - حياة الحيوان الكبرى)

مهر

اندفع المهر الصغير مرتعشا بين قوائم أمه، عندما صك سمعه دوي الانفجارات
ومض في عينيه بريق القذائف. لم يسمع صوت أي من البشر الذين كان يأنس
بهم، ولا حتى الصوت المخيف لابن الرئيس، الذي كان ما إن يحضر إلى مضمار
القصر حتى يرتعش السُّيَّاس وترتعش الخيول. كان صوته خشنا، ويده ثقيلة
وغاشمة، وله أسنان كبيرة تظهر وهو يكشر للآخرين أو يضحك له، له وحده كان
يضحك، يحيط رقبتة بيسراه ويهلل ضاحكا ويُخرج له من جيوبه السكر، أنقى
أنواع السكر في العالم، ليطعمها له بحُب ومرح، بينما كان مع الآخرين قاسيا
وغضوبا. رآه مرة يضرب سائسا تأخر في تجهيز حصانه، يضربه بحذاء الركوب
ذي المهماز الحديدي بعد أن أوقعه أرضا، وظل يركل رأس السائس حتى سال
الدم من أنفه وفمه وأذنيه، بل إنه اعتدى على أم المهر نفسها بضرب شديد، عندما
جفلت جفلة صغيرة وهو يهم بركوبها، ظل يلطمها على خطمها وهي تلوب
وتحمحم باكية حتى تدفق من شديها الدم، ولم يتوقف عن لطمها إلا بعد أن
اندفع هو، المهر، وحال بينه وبين أمه.

أحس المهر ببطن أمه الدافئ متوترا فوقه، وكانت تنقل أرجلها بملزمة مكبوتة حتى لا تتخبط قوائمها بيدن الصغير اللائذ بظلمها، وكانت ترتجف متشبثة بمكانها كلما دوت قذيفة أو لمع بريق انفجار، لكنها في فترات الهدوء القليلة لم تكن تكاد تسترخي، ويستشعر مسيل حنانها، حتى يعود الدوي والبرق، قصف وصمت. قصف وصمت. حرائق، وصوت انهيار أبنية وصرخات، وبعد ليلة طويلة منهكة، ساد سكون مخيف، ومع أضواء الفجر الأولى سمع المهر جلبة أصوات أناس يتصايحون، وأقدام تهرول، ثم اقتحم المكان بشر كثيرون ذوو سحن مغبرة وعيون محمرة، أخذوا يتلاطمون حول الحظيرة، ثم طار الباب وشعر المهر بتملص جسد أمه التي أحاط برقبتها حبل خشن، امتدت قطعة منه لتحيط بعنقه هو الآخر، ورأى نفسه يجري مع أمه، موثوقين معا في حبل مربوط بمؤخرة سيارة نصف نقل متهالكة، تقعقع في شوارع طويلة مدمرة، تشتعل على جانبيها الحرائق، وتتناثر فيها الجثث، وتعمها الفوضى.

أراد المهر أن يكون في ظل أمه، فأسرع في عدوه، وعندما حاذها وجدها مشدودة العنق، بالحبل المطوق الذي يشدها إلى عربة نصف النقل المسرعة. لم تستطع إدارة رأسها إليه، لكنه رأى عينيها المخنوقتين تحوران رانيتين إليه بنظرات معذبة، حمحم وهو يعدو إلى جوارها فحمحت تجاوبه، حمحمة مذبوحة تخرج من عنق يقاوم الاختناق، تقطعت الحمحمة ولم يعد يسمع غير صوت لهاث متحشرج، وقعقة حديد، بينما كان يزيد من سرعته، صار بين قوائمها، لكنها تعثرت، وهوى سقفها الدافئ عليه، فصار ينسحق بين دفء بطنها وأسفلت الطريق، يسمع حشرجة أنفاسها، ويرى قوائمها المسحوولة على الأسفلت المترب ترتعش، تنزف وترتعش. ■



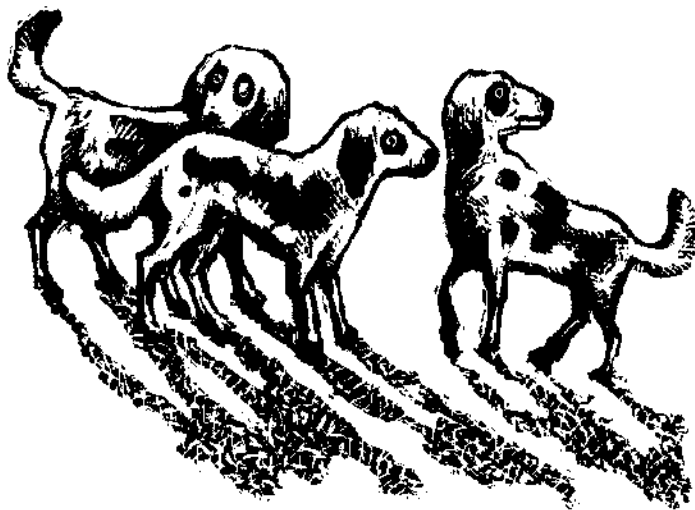
● الكلب: ليست تتم له السلامة؛ لأنه في حال متوقع للبلية، ومتوقع البلية في بلية، فإن لم يسلم فليس على ظهرها مُبتلى أسوأ حالا منه. وإنه ليردد على الصبي وهو في المهد، وهو لحم على وَضْم، فلا يشمه، ولا يدنو منه. وهو أكثر خلق الله تعالى تشمما واسترواحا. (الجاحظ - كتاب الحيوان)

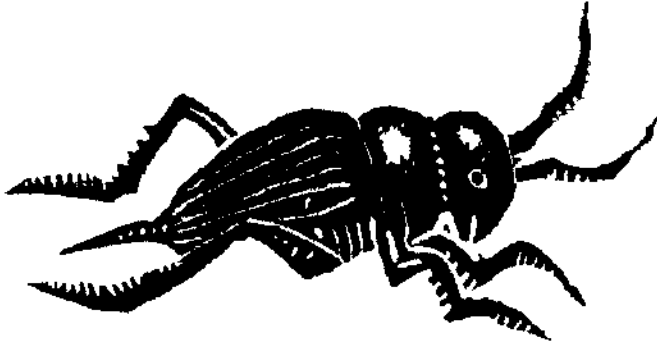
● في الليلة التي تسبق الفيضان السنوي للنيل كان المصريون القدماء يرصدون ظهور نجم ساطع في قبة السماء، فربطوه في مخيلتهم بالكلب الذي ينذر بوقوع الخطر، وأطلقوا على هذا النجم اسم «سيريس»، وهو كلب الصيد، ثم أصبح هذا الكلب نفسه تجسيدا مقدسا لليقظة. وتظهر رسومه فوق عتبات الممرات في معبد أوزيريس. (الإنسان والحيوان - يوري ديمتريف)

جـراء

توقف القصف منذ الأمس، وخرج الناس إلى الشوارع مع ضوء النهار. كانت بقايا الحرائق لا تزال تدخن، وحطام الأبنية المنهارة ينتشر في كل الأماكن، وأرتال الدبابات والعربات المصفحة توغل في الشوارع وتنتشر في الميادين. أكمل الغزاة احتلال المدينة، وفي الوقت ذاته أسقط هؤلاء الغزاة نظام الحكم الذي استمر جاثما على الصدور خمسة وثلاثين عاما. لم يستقبل الناس الغزاة بالورود في المدينة المحترقة، لكنهم كانوا ينطلقون وسط الخرائب بخفة المفلتين من رقابة مزمنة، كانوا منعتقين ومتوجسين، وكانت هناك حالة انفلات وإنهاك تسود كل شيء، حتى الحيوانات السائبة التي كانت مبعثرة في كل الأماكن، أغلبها كلاب

ضالة، وجراء صغيرة تتبعها، كثر بشكل خاص، غامض، في الحديقة الكبيرة على شاطئ النهر، حيث تجمع عشرات من البشر يقرفصون ويميلون وينبطحون، ملصقين آذانهم بالعشب والتراب، لعلهم يلتقطون أصوات الغائبين التي شاع أنها تتسرب من سجون خفية تحت الأرض. أصوات أخوة، وأصدقاء، وأقارب، وأحباب، وجيران، ومعارف، عشرات، مئات، بل آلاف، اختفوا منذ سنين بعيدة في غياهب النظام الذي تلاشى منذ الأمس. تردد أنه كان يودعهم في سجون صماء تحت الأرض، وشاع أنهم عرفوا بسقوط النظام عندما رأوا حراسهم يفرون تاركين الأبواب المصفحة موصدة عليهم. أخذوا ينادون مستصرخين من يفتح لهم الأبواب. ثمة من أقسموا أنهم سمعوا صرخاتهم، وثمة من كانوا يحاولون التقاط هذه الأصوات، يلصقون آذانهم بالأرض ولا يتحدثون إلا همسا أو بالإشارات. صمت غريب ساد جنبات الحديقة واستجابت له الكلاب الكثيرة التي كانت تتوقف مصيخة أسماعها التي تلتقط مالا تستطيع آذان البشر التقاطه، تنتصب آذانها وتنسدل، وتلوي رؤوسها لترهف زوايا الالتقاط، تبدو متحيرة وهي لا تستطيع أن تميز إن كانت هذه الدمة المكنومة الصادرة من جوف الأرض هي أصوات مصفدين في سجون مدفونة في الأعماق، أم ترجيع مكتوم لصوت جنازير المدرعات الغازية، التي راحت تهرس الأسفلت، وبقايا النخيل المقصوف المحترق، وعظام القتلى والجرحى المبعثرين في الشوارع. أما الجراء التي كانت أسماعها البكر شديدة الرهافة، وتلتقط مالا يلتقطه سمع الكلاب الكبيرة، ولا البشر، فإنها كانت ترتجف ارتجافا شديدا غريبا، وتصدر أصواتا مؤلمة كالعويل. ■





● الجندب: نوع من الجراد يصير ويقفز ويطير. (القاموس الوجيز)

● الجُندُجْد (وقيل إنه الجندب): بالضم صرار الليل قاله الجوهري، وهو قفاز وفيه شبه بالجراد، وقال الميداني: الجندجند ضرب من الخنافس يصوت في الصحارى من أول الليل إلى الصبح، فإذا طلبه طالب لم يره، ولذلك قالوا أمكن من جندجند. (الدميري - حياة الحيوان الكبرى)

جنادب نحاسية

على الضفة اليسرى من شارع «سوخومفيت»، إذا كنت متجها نحو طريق فوكيت، وميدان سيام، يوجد أحد أكبر وأكثر أسواق التزييف في العالم. تجار ليسوا تجاراً ينشرون بضاعتهم على مناضد متجاورة بطول الرصيف الممتد لعدة كيلو مترات، تحت مظلات كالحة، وفي عشوائية، وكل بضائعهم مقلدة، مزيفة، حقائب، ملابس، ساعات، نعال، أدوات مائدة، لوحات، منحوتات خشبية، عطور، مِدَى، مصابيح، أشياء بلا حصر تحمل أسماء ماركات عالمية لكنها جميعاً مزيفة. وكانت هناك تلك الجنادب النحاسية التي اشتريتها.

لم أكتف بشراء جندب واحد، بل اشتريت - بربع الثمن الذي عرضه البائع - جندبين في علبتين ورقيتين صغيرتين مكسوتين بقماش ذي رسوم صينية منمنمة، لم أستطع بتفقدتهما عند البائع أن أتوصل إلى كشف سريع للحيلة الكامنة وراء انبعاث صرير، يطابق صرير الجنادب الحقيقية في هذه «اللعبة»، يبيعونها على أنها لعبة. اكتشفت مفارقتها وأنا أهول في الممر العطن، بين مناضد باعة

البضائع المزيفة، ومطاعم الرصيف الصغيرة التي تباع مأكولات غريبة.. لحم بط مدخن أقرب إلى أن يكون محنطاً، وأسماكٌ مقددة كأنها موميאות، وبيضٌ مسلوقٌ تم تحويل بياضه بطريقة طهي غامضة إلى لون أسود لامع. روائح لا تطاق، كانت تجعلني أهول دائماً في هذا المكان كلما مررت به وأنا في بانكوك، لكنني اضطررت للإبطاء هذه المرة، عندما لفت انتباهي هذا الصرير في قلب النهار الآسيوي الساطع.

صرير جنادب في النهار؟! ساءلت نفسي مستغرباً وأنا أهول، وأبطأت حين أدركت أن الصرير ينبعث من فوق طاولات باعة الرصيف، توقفت، واقتربت منحنيًا من إحدى الطاولات التي صُفّت عليها عشرات العلب الورقية الصغيرة، وكان الصوت يرتفع مع اقترابي. سمعت صياح البائع من الجانب الآخر: «مائة بات للواحدة. مائة بات». ورجّحت أن العلب الورقية الصغيرة هي مصدر الصرير؛ تأكدت من ذلك عندما رأيت الجنادب النحاسية المهتزة داخل بعض العلب المفتوحة، وهي تشرق على خلفية من قماش الساتان الأحمر المبطن للعلب. كانت جنادب معدنية لامعة. جندب واحد في كل علبة، يبدأ في الصرير عند فتح الغطاء، ويسكت عند غلقه! رحت أفتح وأغلق، وأتفقد علبا أخرى بها تلك الجنادب النحاسية نفسها، والأمر ذاته يتكرر! لعبة مدهشة، اشتريت منها اثنتين، وقررت أن أبدأ في التعرف على سر صريرها فور عودتي إلى الفندق.

فندق جريس الذي اعتدت الإقامة فيه كلما نزلت بانكوك، كان سيركا بشريا عجيباً، مسلماً ورخيصاً إلى درجة يصعب تصديقها مع نجومه الخمسة، وكانت الجرائد العربية تصل إليه بانتظام، ثم إنه كان يقع في منطقة «نانا» التي يكثر بها العرب والمطاعم العربية، وهو على مبعدة خطوات من شارع سوخومفيت ذاته، الشارع الذي كنت أزدريه وأدمنه في آن؛ ففيه تجتمع المنفرات والغرائب

ونقاط الجذب، وكل الخدمات التي يطلبها المسافر: مكاتب طيران، تحويل عملة، وعدة مراكز تجارية هائلة، وثلاثة من أفضل مخازن الكتب في العالم.

في الطوابق السفلية تحت بهو الفندق، كانت توجد صالات القمار، والنوادي الليلية، وحمّام الساونا، وقاعات «المساج»، وأعجب صالة عرض رأيتها في كل البلاد التي زرتها أو مررت بها، ويقال إنها نشأت في أثناء الحرب الفيتنامية، لتلبية رغبات جنود المارينز الذين كانوا يقضون عطلاتهم الميدانية في تايلاند، صالة لعرض بنات الهوى المتكدسات على منصة دائرية دوارة مكسوة بمخمل قرمزي، وراء سياج زجاجي يحيط بالمنصة ويشكل «فاترينة» يقف أمامها «الزبون» ليلتقط مبتغاه من الفتيات الدائرات شبه العاريات، يتهاقن عارضات مفاتنهن ومرسلات إشارات طلب الصحبة والقبالات الطائرة على أطراف الأصابع. أما في البهو والردهات والقاعات والطوابق الأخرى والغرف، فإن كل المبادل الدنيوية كانت تتفاعل بثقة، محمية بمظلة واضحة الحضور، وإن تكن غير مرئية. ورشة هائلة لتعاطي وتجارة المخدرات، والسُّكر، والبغاء، والقمار، وتهريب الأحجار الكريمة وخشب البخور النادر، وصفقات غسيل الأموال المشبوهة، وأذونات تصدير البضائع المزيفة. ماخور كبير، ووكر، حدثت فيه جريمة قتل، وتحدث في أعماق ليله مشاجرات لاتنتهي بين السكاري، وبكل أركانه تتصاعد الكلمات العربية والتركية والأوردية. ويبدو أن المكان قد استهوى أيضاً أبناء البلدان الغربية، فقد راح هؤلاء كنزلاء الفندق من الشرقيين، يتحدثون بأصوات مرتفعة، وأياد لا تكف عن التلويح. ولعل هذه الضوضاء هي التي غطت دخولي دون لفت للأنظار؛ إذ كان أحد الجنادب منطلقاً في الصرير بالحاح وقوة، مما جعلني أسرع، بينما كنت أفكر في أن غطاء علبته لا بد قد انفتح.

كان فضولي في أوجه؛ فشرعت أفتش عن سر صرير الجنادب النحاسية فور دخول غرفتي. تناولت إحدى العلبتين وفتحتها فتصاعد الصرير وأغلقتها فانقطع، ورحت أغطي العلبة بيدي فينقطع الصوت، وأرفعها فينطلق؛ فانكبت أعين محتوياتها. لم أمعن في اكتشاف سر اهتزاز الجنذب؛ إذ بداني بسيطاً ينشأ عن التجاوب مع الحركة، ونبض زنبرك صغير لا بد أنه كان يركز عليه، أما الصوت فقد أعينني تفسيره، وعبر تكرار إغلاق العلبة براحتي وانقطاع الصوت، ثم انطلاقه مع رفعها، رجّحت أن ذلك مرتبط بالضوء، ورحت ألمس وجود خلية كهروضوئية تقوم بذلك وتكون مخفية تحت بطانة الساتان، وربما بين رقائق ورق العلبة ذاتها. كانت العلبة فائقة الجمال، فلم أجسر على تمزيقها، واكتفيت بالتفسير الذي توصلت إليه. ولفت نظري قبل أن أغلق النور وأنام، أن العلبة مكتوب أسفلها «صُنعت يدويا في تشانج راي».

كانت «تشانج راي» التي مررت بها مرة وأنا أتجول في شمال تايلاند مدينة مربية، طالما اعتُبرت بوابة «المثلث الذهبي»، الذي يضم منطقة حدودية تتوزع بين لاوس وبورما وتايلاند، وكانت تعتبر عاصمة تجارة الأفيون والهيروين في شرقي آسيا، قبل أن تُجبر على تحويل نشاطها إلى زراعة الخضر والزهور والصناعات الصغيرة. ولعل تفكيري في «تشانج راي» قبل نومي هو الذي جعلني أحلم بأنني أهرب من مطاردة غامضة في حقل واسع، تغطيه زهور الخشخاش الحمراء والبيضاء الهفهافة، ثم تضيق أمامي فرص الهروب؛ إذ تتحول أعواد الخشخاش إلى أسياخ فولاذية صدئة، تحاصرني، وتصدر رنيناً متداوماً وأنا أحاول اجتيازها بيأس، بينما شعور بصعوبة التنفس يتصاعد داخلي فأحس بالاختناق بشدة، وأستيقظ.

كانت الغرفة مظلمة، وهناك دقائق جنونية على الباب الفاصل بين غرفتي والغرفة المجاورة، لكنني لم أفزع على الفور كما ينبغي لذلك. ثمة ما كان

يطمئنني بعض الشيء، فأنا أتوجس عادة من مثل هذا الباب، وأشدّد على إيصاده تماماً قبل أن أخلد إلى النوم، بل أعمد إلى وضع إحدى المناضد وراءه، وأثقلها بأقصى ما تحتمله من حقائب، وأدعم ذلك بكل ما يمكنني تحريكه ودفعه من مقاعد أو كنبات أو كوميدينو، وهذا ما فعلته بالأمس. كان ساكن الغرفة المجاورة تركيا يشتم بألفاظ نابية أعرف بعضها، وفي لحظة سكون ما بين دقه على الباب وشتيمته التقط سمعي صرير الجندب، استغربت لهذا الانبعاث غير المتوقع للصرير في ظلمة الغرفة، التي لم تكن تتيح أي ضوء لتشغيل الدائرة المعتمدة على خلية كهروضوئية كما كنت أرجح.

أشعلت مصابيح الغرفة كلها، ورحت أبحث عن علبة الجنادب النحاسية، لم أجد إلا واحدة، وأخذت أمعن في تذكر المكان الذي تركت فيه الأخرى، التي كنت أتفقدتها قبل أن أنام. أين تكون قد ذهبت، ومكونات غرف الفنادق محدودة لا تضيع بينها علبة واضحة الألوان كهذه؟ أبحث فلا أجد شيئاً، ويتحول الصرير إلى صوت حاد، مؤرّق وممزّق، جعلني أحتمل هياج التركي وشتيمته الآتية عبر الباب الموصد، ثم لاحظت أن ضوءاً آخرى تنبعث من الردهة الخارجية.

فتحت باب غرفتي مواربا لأطل، وسرعان ما تراجع في فزع؛ كان معظم نزلاء الغرف المجاورة خارج أبواب غرفهم في ملابس النوم، يتصايحون بالشتائم متعددة اللغات، ويلوحون بقبضاتهم، بينما ظهرت وراءهم عبر الأبواب المواربة بعض بنات الهوى، مطلات برؤوسهن مهوشات الشعور، وأعناقهن، وأكتافهن، وشيء من صدورهن العارية.

أدركت الخطر الذي يحدق بي. فلا شيء أشرس من رجال ثملين وهائجين بُثرت انطلاقات نشواتهم المتأججة، لا بد أن صرير الجندب أزعج جاري وأطار نشوته، فثار جنونه، وأزعج دقه المجنون وصياحه الآخرين، فانتفضوا بدورهم في غضب إضافي مجنون.

اشتعل عمق الليل بهذا الصخب الجنوني، وأسرعت أضع السرير خلف باب الغرفة الرئيسي؛ خشية أن يفتحه أحد الرجال الثملين، لكن أمر الاستسلام أتاني من داخل الغرفة نفسها، فإدارة الفندق التي لا بد أن أحد الرجال الغاضبين، أو خدّم الغرف، أو مراقبي الطابق قد اتصل بها، أرسلت مجموعة من العاملين إلى غرفتي، ولما دقوا الباب ولم أفتح اتصلوا بالإدارة التي اتصلت بي، قال المتحدث إنني أخالف شروط الإقامة بالفندق بإزعاج جيراني، قلت له إنني لا أزعج أحداً وليأت ليعلن ذلك بنفسه، فطلب مني أن أفتح الباب لرجال الفندق؛ ليتأكدوا من ذلك. وما إن شرعت في فتح الباب حتى فوجئت باندفاع الرجال الثملين الهائجين للدخول مع رجال الفندق، فأسرعت بصفق الباب، وأمنت إغلاقه من الداخل، ثم جلست وسط الصرير القريب والتصايح البعيد، أفكر متوتراً بالأدوات التي أَدافع بها عن نفسي إذا ما هاجموني، وأفكر في ضرورة ترك الفندق التماساً للأمان.

لم أنتظر أن تعاود إدارة الفندق الاتصال بي، بل بادرت أنا للاتصال بهم وقلت إنني مهدد بالقتل من السكارى الغاضبين، وإنني لن أخرج من غرفتي إلا في حماية الشرطة. كنت أقدر أن مجيء رجال الشرطة في زيهم الرسمي يمكن أن يردع اندفاعات العدوانية في الرجال الهائجين. جمعت أشياءي من الغرفة وجهزت حقيقتي، وارتديت ملابس الخروج، ولم أسمع وأنا أنتظر مجيء الشرطة - على الرغم من استمرار الصخب من حولي - إلا صرير الجندب الضائع الذي هجّت أفتش عنه.



أزحت اللوحات المعلقة على الحائط، ورميت بالمقاعد إلى إحدى الزوايا، وقلبت الفراش عن السرير، ونزعت أدراج المنضدة من أماكنها، وكدت أنزع أبواب الخزانة وأنا أفتحها عن آخرها، ولم يكن هناك إلا الجندب في العلبة المغلقة. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أقبل ثلاثة من أفراد الشرطة لاصطحابي إلى فندق آخر، ولم أنس أن أضع علبة الجندب المغلقة في جيب قميصي وأنا أغادر.

عشروا لي على حجرة في فندق قريب من فنادق شارع «سوخومفيت»، يسمى «أمباسادور»، فندق كبير عتيق تحيط به حدائق نباتات مدارية مترفة الخضرة، لا ينقطع عنها الضوء المنصب من مصابيح عالية قوية، تحاكي ضوء النهار، وتعمل تلقائياً مع غياب ضوء الشمس. كنت جائعاً ومجهداً حتى أنني فضلت البقاء في مقصف البهو، المطل على واحدة من هذه الحدائق الداخلية، لأحتسي كوباً من الشاي وأتناول قطعة من الكعك، نهضت إلى مشجب الجرائد في ركن المقصف، وجلبت مجلة ملونة باللغة الإنجليزية، استوقفني فيها موضوع مصور تحت عنوان: «تشانج راي.. ذكريات الأفيون»!

كان الموضوع يتحدث عن «متحف الأفيون» الذي افتُتح في تشانج راي بعد حظر زراعته وتجارته على أرضها، وهو متحف صغير يحكي عن زراعة الأفيون

وتصنيع الهيروين، وطرق وأدوات التعاطي، والمضار المختلفة على البشر، ويعرض لكل ذلك بحشد من الصور والأدوات والمقتنيات النادرة. وإضافة إلى الحديث عن المتحف كان هناك تأريخ لانتعاش تجارة المخدرات في المثلث الذهبي، وهي منطقة حدودية تتشارك فيها كل من لاوس وبورما وتايلاند، والتي شهدت فورة مالية ملحوظة مع ازدهار هذه التجارة أثناء الحرب الفيتنامية، لكن بعد انتهاء الحرب، ومع إحساس الولايات المتحدة بأن خطر هذه التجارة وصل إلى عقر دارها، وراح يفتك بالشبان الأمريكيين أنفسهم، مارست أمريكا ضغوطها لحظر زراعة وتجارة الأفيون في المنطقة، ورحبت تايلاند بذلك مقابل مساعدات للمزارعين، تدعم تحولهم إلى زراعة الخضر والزهور والصناعات التقليدية الصغيرة. وحدث التحول، لكن الدعم الموعود لم يصل، فعاد نشاط المخدرات وإن بطرق سرية، ومع هذا النشاط السري وُلِدَ رافد جديد علني هو المصنوعات المزيفة، والمزيفة بإتقان بالغ لم يستثن شيئا، ابتداء من بناطيل جينز ليفايز، ولي كوبر، وحقائب ديلسي، ومطواة الجيش السويسري، حتى ساعات الرولكس والكارتييه، وعطور الشانيل، وأدوات مكياج ماكس فاكتر وكريستيان ديور، وإكسسوارات إيف سان لوران وغيرها.

حضر الشاي وقطعة الكيك، فرحت أرثشف وأقضم بآلية، دون أن أكف عن المطالعة ومشاهدة الصور، لكنني نسيت الشاي والكيك تماما، عندما غرقت في قراءة إطار داخل الموضوع، على صفحة كاملة، عنوانه: «ميراث الحرب المنسية»، أشاروا في نهايته إلى أنه مأخوذ عن كتاب للأمريكي «جوي كامينجز»، يسرد مستشهدا بكتاب وثائقي أمريكي آخر هو «كريستوفر روبنز»، وقائع عملية سرية ضخمة، انخرطت فيها المخابرات الأمريكية تحت اسم (كودي) هو «طيور الغداف»، التي تعني نوعا من الغربان السود النهم. ولقد استمرت هذه العملية من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٣، دون أن يدري العالم عنها شيئا. فبعد اتفاق جنيف الموقع عام ١٩٦٢، بين الولايات المتحدة وفيتنام

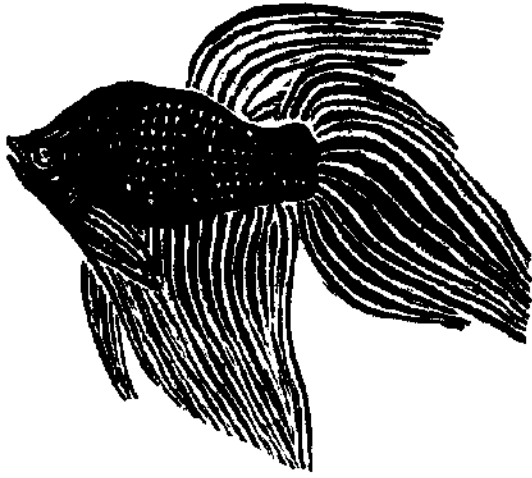
الشمالية، والقاضي بإيقاف القصف الأمريكي المروع للاوس، مقابل التزام كل الأطراف بعدم وجود أي من قوات المتحاربين على الأراضي اللاوسية، وتعويض خسائر لاوس بمساعدات أمريكية مناسبة. قامت المخابرات الأمريكية بتكليف حشد من الطيارين الأمريكيين العملاء السريين لمخابراتها المركزية، وأبستهم ثيابا مدنية؛ ليقودوا طائرات شركة «أميركان إيرلاينز» المدنية الشهيرة. وتحت ستار نقل المساعدات راحت هذه الطائرات تنقل الأفيون والهيروين في تجارة سرية، كانت تدر على الولايات المتحدة ٢ مليون دولار يوميا، وهو مبلغ يغطي في يوم واحد، كل المساعدات التي قدمتها أمريكا إلى لاوس على مدى سنوات. أما بقية عائد هذه التجارة، فكانت تستخدم في تغطية نفقات العمليات العسكرية للجيش الأمريكي في فيتنام. كانت عملية «الغدا» من السرية إلى درجة أنه لم يكن يشار إلى مكانها إلا بعبارة «مسرح العمليات في الجانب الآخر»، وكان الطيارون الأمريكيون عملاء المخابرات المركزية مجبرين على حمل حبوب صغيرة من سم «شل فش» القاتل، في جيوب سرية داخل ملابسهم، لابتلاعها حال وقوع أي منهم في الأسر؛ حتى لا ينكشف سر هذه «الحرب المنسية» كما أسماها التحقيق!

شاردا وضعت المجلة على المقعد الخالي إلى جوارى، وببطء رحت أحتسي الشاي، الذي برد وألثمهم ما تبقى من قطعة «الكيك»، التي لم يكن لها طعم، ولم يخرجني من شرودي إلا الإحساس بشيء ما يتحرك على عنقي، مددت أناملي فعثرت وأنا أنتفض واقفا وصارخا على جسم صلب، سرعان ما ألقته على الأرض. كان جندبا نحاسيا، بينما العلبة الصغيرة وجدتها مفتوحة وخالية في جيب قميصي. فما الذي فتحها؟ وكيف غادرها هذا الجندب النحاسي؟ وبأي طريقة صعد إلى رقبتني؟

بينما كان بعض رواد المقصف ينظرون إليّ باختلاس ودهشة؛ في أثر الصرخة التي أفلتت مني، التقطت الجندب ووضعته على المنضدة، وعلى صفحة الرخام

الداكن رحت أراقب الجندب البراق، الذي انكبت عليه بأقصى اقتراب ممكن. كانت أقدامه الدقيقة العديدة المذهبة تتحرك كلما شعر بالسكون، وتسكن مع أصغر حركة تبدر مني، ولو من طرف أصابعي. التقطت الشوكة والسكين ورحت أعمل، فصلت أجنحة الجندب المذهبة فظهر تحتها جسمه البني الأسود، وفصلت الصدر عن البطن؛ فأنكشف تكوينه الحي وهو يدور، يدور مرتاعاً برأسه ونصف جسمه المقطوع، بينما ذرات الطلاء المعدني تتساقط عنه، رمادا نحاسيا دقيقا، يتناثر على صفحة الرخام الأسود المُعَرَّق بالخضرة. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي



● رَبِّ كَبِيرٍ هَاجِهْ صَغِيرًا.. وفي البحور تفرق البحور. (عن الجاحظ عن راجز - كتاب الحيوان)

كان يطارد فراشة في البحر

على حافة الماء، في وقت خلو الشاطئ من البشر، في الصباح الباكر، قرب الفجر، وعندما يكون البحر في نهايات الجزر، مكثت أرى الرجل على كرسيه المتحرك، يدفع عجلتيه بقوة يديه الباقيتين، يطبع على الرمل المبتل خطين غائرين، يتوازيان ويتقاطعان، يملؤهما الماء حيناً وحيناً يتركهما فارغين، وما هي إلا دقائق حتى يصعد الماء على دائرتي الإطارين. يبدو المقعد وكأنه يفرق بنعومة مع ارتفاع مياه المد، لكن شيئاً مفاجئاً ينتفش أسفل المقعد، ويجعله يطفو كزورق يعلو ويهبط فوق الماء، إنها وسادة هوائية زود بها الرجل مقعده، يضغط زرا تحت يده على مقبض المقعد الأيمن، في اللحظة المناسبة، فيعوم به المقعد ويتأرجح، وهو يقوده حيث يريد، يتقدم أو يتقهقر، ينعطف يمينا أو يسارا، فالعجلتان تحت يديه كانتا تتحولان إلى دفة وعنفات رفاص معا.

هو الآن يركب البحر لكنه لا يوغل فيه، بل يوغل في ذكرى يوم محدد من زمن بعيد حكى لي عنه، حين كان يذهب إلى البحر على قدمين سليميتين، حيتين، ويخوض في الماء حتى يصل الماء إلى صدره فيعود، لكنه يومها لمحها في الماء، فشملته رعدة مفاجئة وسخونة، وغاب عن ذهنه الصفو واضطرب الماء.

امتدت يده غائصة لتمسك بهذه «الفراشة»، زاهية الصفرة، وهو لم يتحسب لذلك.. لم يتحسب للماء الذي بدأ في أوبة المد يعلو، لم يتحسب لخبرته الضئيلة بالبحر، هو الذي لم يجرؤ على النزول إلى البحر إلا والبحر في جزر، ربما أغرته هدأة الماء الحسير، الذي مكث يطفو على سطحه سائحا وقتا، يتفرج على ممالك القيعان التي رق فوقها ماء الجزر الفيروزي وشف. وربما غرته هيئة هواة الغوص التي يرتسم فيها بقناع ذي نظارة للماء، وأنبوب للتنفس، وبندقية حرب «هاربون» تتعلق بالكتف. وربما أغارت على صوابه تلك الصفرة صارخة الجمال، للسمة الفراشة التي وضح أنه لم يتخيل لها وجودا في غير الأفلام الملونة لقاع البحر الأحمر، وصور الكتب الصقيلة عنه.

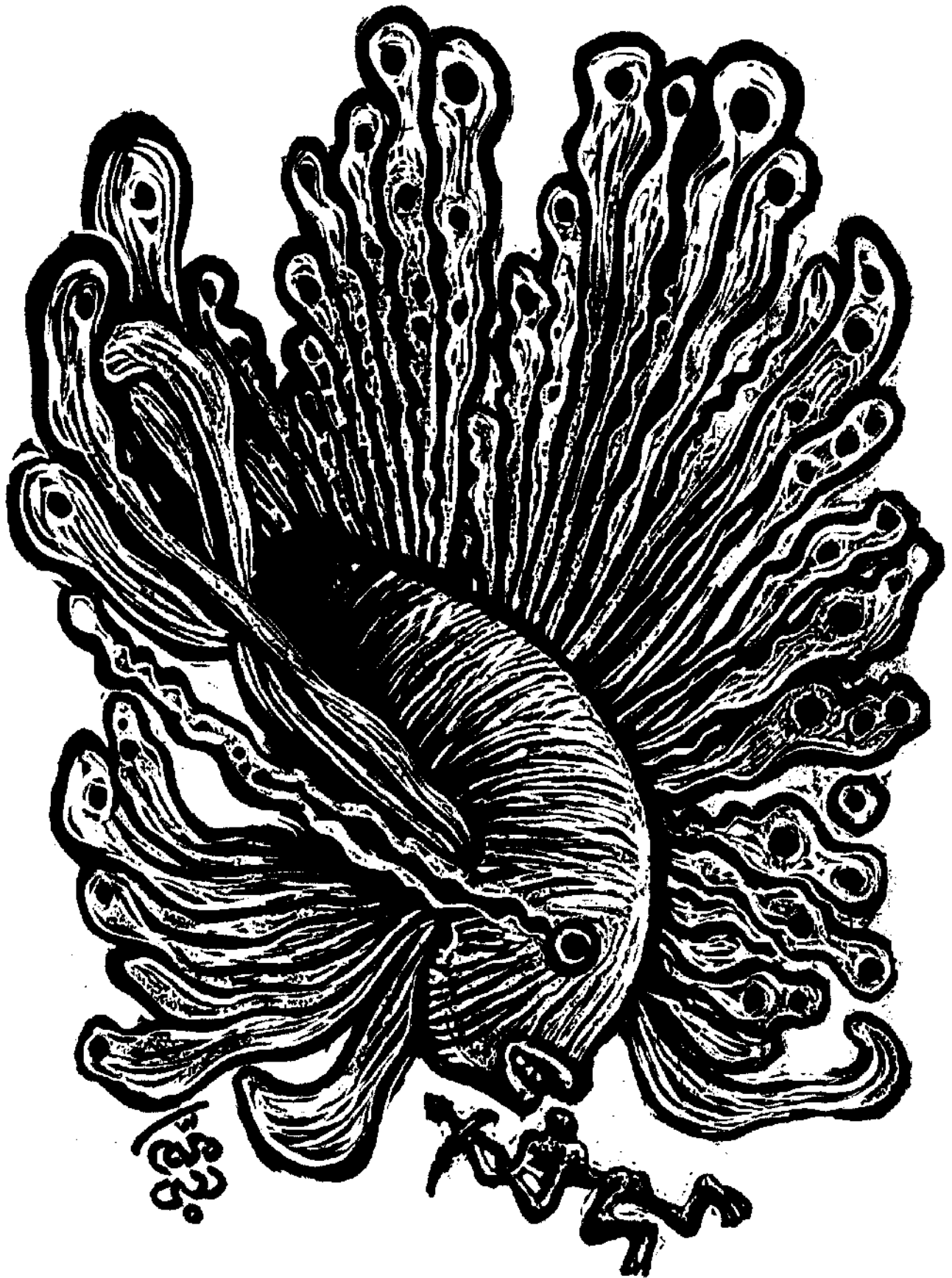
اضطرب الماء، وزاغت السمكة، لكن لم يفلتها البصر.. هي تهرب مبتعدة، وعيناه تتعقبانها في هذا الابتعاد، أذرعته تعمل في الماء، وأقدامه تتبادل ضرب صفحته، ورشاش الاندفاع يتطاير ثم يتساقط، فينقر ظهره الذي أدفأته الشمس ببرودة وبلل، تستبد به الشهوة لامتلاك فراشة البحر، وهي تعاند، استحضر وجوده كله في تلك اللحظة، وحبسه في قمم السمكة الصفراء أمامه: «لن أفلتها» يضرب بذراعيه، وقدماه تشتعلان بالرفس، كرفاصات زورق مطارد، والحيوان المغلول في بدنه يخرق أغلال الكبح بجمع مجنون، ترميه سرعته بالانتشاء فيسرع أكثر: «أنا لك يا فراشة البحر، أم أنك لي، إني لا محالة بالغك». وراح الأنبوب يحمل إلى فمه مع الهواء ماء، وهو ما بين شرب الماء الثقيل المالح والتنفس والسعال سهم تجاوز وتر القوس، لا شيء غير الاصطدام يوقفه. نسي بيته الذي تعب في تأثيثه على الشاطئ، وعروسا كانت تنتظره هناك، نسي سريره الذي لا يرتاح في غيره، والناس، وما كان من أمره وما سيكون، وانطلق سهمها يمرق في دائرة النزوة، ضربة الذراع تغري بضربة أشد، ولطمة القدم تستثير لطمات أقوى، وكأن زحفه عائما على الماء قد استحال إلى حرث عربة مجنزرة، لأرض تختلط قسوتها باللين، أو لينها بالقسوة، لا يدري، فقط يحس بكونه يغالب الماء، وذراعاه تنطلقان وتلظمان، ثم تشقان وتدفعان في غوصهما قوامه

المتناقل: «إني أطوي الماء.. إني أطوي الماء» ظلت تتردد في داخله بانتشاء وحشي وهو لا يعرف، أو لا يريد أن يعرف: هل يحارب الماء كان، أم كان يروم فراشة البحر؟! وكلما ركز تفكيره في جسده المشتعل بالضرب والرفس، يُختزل الوجود إلى قيعان تمضي إلى الوراء، إلى الوراء، وسمكة صفراء أمامه تهرب، يتيه شاعرًا بنفسه مركز هذا الصخب ومحدثه، فيتمادى، ويتشهى لو يتمادى مزيدا، لكنه يحس بشيء ما يعيق إطلاق تماديه، ويثقل جانبه الأيسر.

تذكر بندقية «الهاربون» في كتفه اليسرى، وتذكر الحربة المتأهبة للانطلاق منها، وطاف بذهنه خاطر قاتم، تخيل فراشة البحر مرشوقة بسن الحربة، ميتة، تفقد بهاء صفرتها، تتعكر، تتساقط قشورها وتغدو مُرمدة زلقة، وأحس بالطعم المُغثي والمر لسماك البحر الأحمر الملون النيئ في فمه، فوهن في العوم، وجعله التفكير في ذلك يفيق مما هو فيه، ويسأل نفسه: «ما هذا الذي يحدث؟ ما هذا الذي يحدث؟» وتجتاح كيانه لحظة من جزع غامض، يكف عن السباحة، ويمكن طافيا بغير حراك، ناشرا جسده على الماء، ثم برهبة وتعثر، وكأنه يفعل ذلك للمرة الأولى، يسبح بيميناه منفردة، تاركًا قدميه ترفسان الماء ببطء، تصعد كتفه اليسرى ويهبط وسطه، ويستدير شبه واقف في الماء، حتى يغير اتجاهه، يصير في مقدوره أن ينظر إلى الشاطئ، ولا يجد شاطئًا هناك، لا شاطئ على امتداد البصر، ولا قمة للجبال الحمراء تلوح في الأفق! إنها عشرة كيلومترات - على الأقل - من الشاطئ، غمرتها مياه المد، لا شيء هناك سوى الماء، الماء، الماء. موج أزرق داكن، يتلاطم، يعلو ويهبط والقلب يغوص، أحس بخوف غير بشري، وتضاؤل، واستعر جنونًا يسبح راجعًا، وهو لا يوقن في صواب اتجاه الرجوع، يسبح، وفي لحظة تومض في ذهنه فكرة أن يسبح بعض الوقت، ويطفو البعض الآخر، حتى لا يدركه الكلل، لكنه لما شرع في الطفو وجد الجسد يتناقل، وكان البحر فاغرًا، والماء يوشك على الابتلاع؛ فأسرع مرعوبًا يسبح من جديد.

تذكر سمكة «الفراشة» في لحظة خاطفة، فاقترن تذكره لها بشعور كالخجل، وكانت هناك رغبة كاشتھاء الإجهاش في البكاء تراوده، ولا يستطيع التوقف عندها، بينما هو كالمسحور، يمضي في العوم، وبآخر طاقة أطرافه الأربعة. يستريح هنيهة وخده على صفحة الماء، فيلمح رشاش الرفس عند قدميه اللتين لم تتوقفا، كأنما بإرادة ذاتية منهما: «إنني سأنال النجاة.. سأنال النجاة» تعبر روحه كهبة عطر في مرأى الرشاش، لكن تردفها على الفور: «هل سأموت الآن؟» ويشعر بالأسف والحسرة، يرى جثته طافية فوق الماء يرميها الموج مع الزبد على الشاطئ: «من يندبني؟» يتعلق وجه عروسه ثابتا فوق الماء لحظة ويتلاشى كبخار يتبدد، ثم يرى أمه في السواد، يعتصرها الدمع ويسحقها النحيب.

كان صوت ضربات ذراعيه، ورفس قدميه يأتيه متماوجًا بين الضجيج والخفوت، ثم انتبه إلى صوته إذ وجد نفسه يثن مع كل ضربة ذراع، وكان هناك ألم كانغراس سكين في اللحم والعظم، يعصف بكتفه اليسرى، تذكر أنه لا يزال يحمل «الهاربون» في هذه الكتف وسأل نفسه: «هل أرميه؟» وما كاد يمد يمينه إلى كتفه دون تهيو، حتى هرب منه الهواء ووجد نفسه يغطس، بل يُرشق غائصًا، وقدماه تشدان عوده إلى أسفل، مرت به خاطرة أن يبحث بأصابع قدميه عن القاع، لعله يقف عليه ويستريح قليلا، وكان هلعًا وهو لا يجد أي قاع هناك.. «هل أموت الآن؟» تلبث به ارتياح، وشعور موغل بالوحدة وهو يفتح عينيه في الماء، يرى الزرقة والاختضار المشربين بالضوء، ويرى فقاعات مضيئة، تنبثق وتصعد وفيرة من حوله إلى السطح: «هل أموت؟» تردد اسمه مهتوفًا بأصوات يعرفها، وأخرى غريبة، وكان مقترنًا بلفظة: «مات، مات، مات» وتعجب أنه لا يشعر بالألم، وقد كان مجرد دخول الماء في أذنيه يجعله يصرخ، تنبه إلى كونه يتلع الماء ولا يتنفس، وفكر في أن ذلك كفيلا بشده أكثر نحو القاع، فهو إذ يشرب الماء يثقل، ثم صفا ذهنه صفاء غريبًا وتملكته لحظة مغرقة في النعومة واليأس: «سأموت. سأموت».



راح يتلّع مزيداً من الماء، بينما غوصه باتجاه القاع يتبدّى كهبوط ذرة من غبار في حزمة ضوء، يسمع البحر الداوي برنين ليس له صدى، ويتردد اسمه في صفاء الدهن مقترنا بلمسة أسيفة وساخرة: «هه. هه. هه». كأنها تُشيع الاسم، وتنداح معه مبتعدة في آفاق الماء المشرب بالضوء. هه. هه، لكنها ما تكاد تتلاشى حتى يشتعل خوفاً، خوفاً هائلاً من مصير الاختناق.. قدّر أنه سيلبث في

عذاب مرير، حتى ينتهي كل شيء، فاندفع يضرب بقدميه وذراعيه لعله يصعد: «لا أريد أن أموت مختنقاً»، ويضرب صاعداً، يضرب، يضرب حتى انقطع دوي البحر وشارف على الهواء فتنفس، وجد نفسه يعاود السباحة دون أن يسمع أو يرى، أو يرى ويسمع دون أن يفقه غير أنه يعوم، ويعوم بلا يقين، وفي هذا العمى والصمم شاغلته أمنية ألا يموت مختنقاً بالماء، بل يموت بأسرع ما يكون؛ ليفلت من عذاب الاختناق.

عاد إلى ذهنه ذلك الصفاء الغريب، الذي تجلّى له لحظة تحت الماء، فكان يرى ويسمع.. يرى تجذيف أذرعه وتلاطم الموج، يسمع اصطخاب قدميه ورغاء البحر، ويسمع أصداء القرار في نفسه: «سأموت بإرادتي - خطفاً - ولن أموت مرغماً بالاختناق».

عمد إلى الميل برأسه تاركاً قدميه تصعدان، وكان يستطيع تخلص بندقية الحربة من كتفه بيسر تحت الماء. تنشق الفقاعات المومضة الخضراء غزيرة وتصعد من حوله، وهو يغوص برأسه إلى أسفل، تهش روحه لهذا الوميض، وذاك الاخضرار، وتهالوي إذ تهش، لا طاقة لي بأن أصبح كل هذه الكيلومترات المحالة: «سأموت بضربة واحدة تفقدني الوعي، بدلا من مكابدة ذلك الغرق الغامض». كان يفكر في توجيه فوهة الهاربون إلى رأسه، ويضغط لتنتقل الحربة، تخترق الحربة جمجمته إلى المخ، وتمزق تلافيفه فلا يدري بألم ولا باختناق.

كانت هناك ثلوج تتجمد في مفاصله، وألم لم يعرفه أبداً، يجتاح كتفيه، وعضديه، وفخذه، والرسغين، قارصاً وعاصفاً ويفوق الاحتمال، يدفعه إلى خاطر الموت اليسير، وهو يهرب من عسر النجاة: «ليس في هاتين الذراعين ولا تلكم الساقين من قوة». واسترخى، فواتاه الصفاء وعاد يميل غائصاً برأسه مهيئاً لبندقية الحربة أمامه.. أحس وهو يهبط بفوهة الهاربون تلامس شعره، فارتجف، تردد في الضغط، وهو كمن يوشك على البكاء، تختلج روحه: «أهكذا ضاعت مني الحياة وأساق إلى الموت بيدي؟» كانت تيارات الماء تؤرجحه، وكل ما عاشه يمر أمامه في شريط من الصور بغير صوت، رأى أناساً لم يتذكروهم منذ سنين، وطالع مناظر لم يكن يحسبها باقية في نفسه، رغب في الضحك برهة،

ورغب عنه في أعقابها، ولم يعرف إذا ما كان يبكي أم يضحك، ثم اعتصرت الصور وانضغطت أمامه، فقطرت سواداً وهو يتوفّر للضغط.

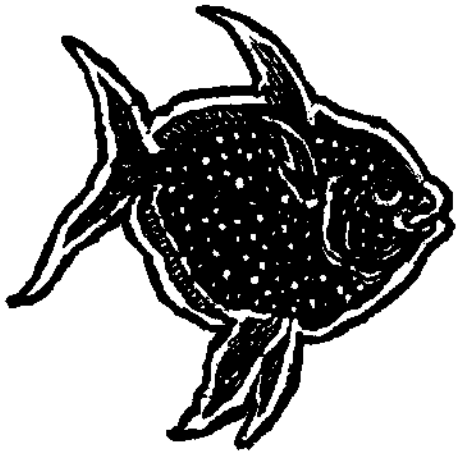
برق الماء أمام عينيه، أبيض، ثم أخضر، ثم انفجر فيه اللون الأحمر وتكاثرت الفقاعات الدامية المضيئة، لقد لسعت ظهره وخزة، وخزة خاطفة، وشعر بساقيه بغثة، رخوتين ثقيلتين، وكانت يداه الخاليتان تضربان سطح الماء: «إنني لم أمت! لماذا لم أمت!» وتنفس وهو يطفو، شهق هواء الدنيا، وزفر ارتياحاً، لقد أخطأت الحربة دماغه لكنها أصابت ظهره، نفذت في عموده الفقاري، وشلت ساقيه: «سأموت عاجزاً مختنقاً»، وشعر بالأسف والسخرية، والماء يتكاثر من حوله، وهو يضرب بذراعيه، يسبق امتزاج الماء بدمه حيناً، وحيناً يسبقه الماء الدامي، فيرى حياته مسفوكة في الحمرة، ويلمح بين فرجات الحسرة والذهول مساحات دائرية ناعمة منه تقترب، أبصر أسناماً داكنة تمرق منزلة تحت هذه الدوائر، ولمح عينا خرزية قاسية التحديق، وفكا مطروساً بالأسنان، فوجد نفسه يشتعل ضرباً في الماء بذراعيه، بذراعيه وحدهما.

كان يجبر ساقيه الميتين، وأحس بالحربة مازالت مستقرة بين فقرات ظهره، تنشر في عظامه ألماً وخدراً، وهو كالمجنون أو أنه جُن، يسبح مبتعداً عن نذير الزعانف السوداء التي برزت على السطح، «أسماك القرش تجذبها رائحة الدم، لون الدم»، برقت في ذهنه الخاطرة، فأبصر دون أن يلتفت أفواه القروش النهمة. رأى عيوناً لا تطرف، وصفوفاً من الأسنان المثلثة الحادة تترصد لحمه.. سمع زقزقة وصريراً، سمع أصواتاً كأنها حراك مفاصل صدئة، فاشتعل يسبح هارباً من فك سينهشه من الخلف في لحظة، وسمع الصوت ثانية كالصفير، فمرق طائر مدهوش يخرج من جبينه، والتفت التفاتة لا يعرف كيف وافته على الرغم من هذا العجز المرير والرعب، كان يرى ولا يستطيع أن يفهم، يرى الدوائر الناعمة تتبعه ويرى العيون، وبين العيون استغرب وجود نافورات تتلألأ في الضوء. سحبات من بخار كثيف ترتفع في استقامة، ثم تبدد ككرات ضبابية مفضضة منداحة إلى الخلف، كان يهرب إلى الأمام بينما تتقاطع داخله دهشات بارقة: «كيف أستطيع؟ كيف استطعت؟». وكانت لحظة جنون لا شك، تلك التي امتد فيها

الشاطئي على مرمي بصره.. رأى جبل «أبو دخان» يقترب متماوجاً في الأفق، رمادياً أزرق، أحمر، أصفر، وردياً، وتحتة أبصر «شاليهات» الغردقة الخشبية القديمة متناثرة يركب بعضها بعضاً، ثم رأى أحاداً من الناس يصرخون متنادين، وهم يسرعون إليه، أحدهم كان يركب طوفاً ويضرب في الماء بمذراة طويلة، وآخر يغوص في الماء الذي لم يبلغ وسطه، يتبعه اثنان لا يبلغ الماء ركبتيهما، «آآآآ»، صرخ فسمع صوته كما لم يسمعه قط، كانت صيحة ندم بدائية تأتي من أغوار سحيقة في كيانه، وأعقبها أصوات الزقزقة، الصرير، الصفير، وبرقت في ذهنه كلمة «الدرافيل» فالتفت مخطوف الفؤاد وراءه، رأى الذبول ذات الأهلة تضرب في الأعالي، ثم طابور الأخطام والظهور اللامعة الزلقة تتعقبه، صف الدرافيل المهياً بالغريزة إلى رفعه في دفقات حتى لا يهوي، كان يفطن بتقطع أنه نجاة: نافورات الزفير، الذبول ذات الأهلة، دوائر الماء الناعمة، الجبل، الشط، الناس، الطوف، المذراة.. «إنهم آتون لانتشالي». أيقن أن الدرافيل ستحملة إن عز عليه الطفو، وسيبلغه البشر إن كَلَّت أذرعه، واستغرب كيف سبح كل هذه المسافة بذراعيه، بذراعيه وحدهما بعد أن أصاب ساقيه.

رأى النوارس تحلق فوق مياه الشاطئي، وبطونها البيضاء تومض بفيروزية لون الماء، وكانت أصواتها مرتفعة ومؤلمة، ثم فوجئ بيديه تصطدمان بالقاع الرملي، وكان يكفيه أن يعتدل جالساً في هذا الماء الضحل، حتى ينال النجاة.. لمس مقدم الطوف جبهته فأجهش متذكراً ساقيه، انطفأت جذوة بدنه، وكأنها طاقة محرك حكيم كف عن الدوران، يستريح عندما بلغ المدى ولامس الحافة، ثم غاب عن الوعي بينما كانت تتلقفه الأذرع.

والآن، الآن يتذكر ذلك كله، ويضبط تذكره على إيقاع ساعة غامضة في كيانه، تجعله وهو يستدعي اللحظة الختامية، لحظة غيابه عن الوعي بين الأذرع منذ سنين، ينتبه إلى هبوط الماء مع انحسار المد وانسباط الجزر تحت مقعده، يدرك أن عجالات المقعد تستقر على الرمل المبتل، فيمضي راسماً على الرمل خطين غائرين، يكفان عن التقاطع وهما يتقدمان متوازيين، يتعدان ويتعد هو، قبل أن تبرز الشمس، ويتقاطر الناس على الشاطئي. ■



● يظن معظم الناس أن الأسماك صماء، لكنها ليست كذلك، فالأسماك تستطيع أن تسمع أصواتا هادئة، لا نكاد نسمعها، وهي تستطيع عادة أن تميز بين نغمة وأخرى، وعلى الرغم من أن الأذن في الأسماك أقل تعقيدا من تركيب آذاننا، فإن ذاكرة الأسماك للنغمات تثير دهشتنا؛ فبعد بضعة أشهر، استطاعت الأسماك أن تتذكر النغمات التي دُرِّبَت عليها في التجارب، فكانت تستجيب استجابة صحيحة إلى نغمة أو إلى أخرى. وعلى ذلك فللأسماك ذاكرة قوية للنغمات، بل إنها تفضل بكثير ذاكرة كثير من الناس. (مونرو فوكس - شخصية الحيوان)

سمكات أرجوانية صغيرة

حتى الساعة العاشرة صباحًا، ظل الضباب الرقيق معلقا في أفق هانوي، مدينة البحيرات العديدة والشجر الوارف. كنت قد أنهيت جولتي المبكرة ووصلت إلى حافة بحيرة «هوتشي منه» الهادئة الصافية، جلست على السياج الحجري الخفيض المحيط بالبحيرة، والذي يأخذ في مكان جلوسي شكل قوس واسع من الحجر الجيري الأبيض المصقول، يقطعه درج من الحجر ذاته، يهبط إلى سطح الماء، ويغوص فيه حتى يتلاشي.

هيات نفسي لاستراحة مديدة، في أعقاب الجولة التي استيقظت لها منذ الخامسة صباحًا، واخترت أن أكون في الموضع الأقرب من الدرج، حيث يتوافد الناس بلا انقطاع؛ ليشاهدوا أعجوبة «سمكات هوتشي منه» التي تتجلى

في هذه البقعة من البحيرة، والتي كنت أتأهب لتجربتها بنفسي في اللحظة التي يخلو فيها المكان من الزوار.

الضباب الخفيف الشاسع المعلق فوق الأرض، كان يضيفي غلالة من السحر على المكان المترامي من حولي، ومن بين الأشجار المدارية الوارفة كان يمكنني أن أتبع أهم معالم هانوي (السياسية)، دار الحكم التي كانت مقرراً للحاكم الفرنسي قبل هزيمة فرنسا في معركة ديان بيان فو، ومتحف (الثورة)، وضريح «هوتشي منه»، «هوتشي منه» الذي رأيته أخيراً، وجهاً لوجه، بعد انتظار طال أكثر من ثلاثين سنة.

على مقربة بضع خطوات من المكان الذي جلست فيه، كان هناك بيت «هوتشي منه» الخشبي، ووراءه الخندق الذي كانت تجتمع فيه قيادة «الفيت كونج»؛ لتخطط مسارات المقاومة الفيتنامية لأعتى قوة عسكرية عدوانية في العالم.. وأخيراً، على مقربة أمتار قليلة من مجلسي، كانت هناك «البرجولة» الخشبية المستديرة البديعة، من طابقين، والتي خصصها «هوتشي منه» لأوقات القراءة، واللقاءات الشخصية، وأهم لقاءات الأسبوع، عندما يأتي سرب من أطفال هانوي ليقضوا معه، هو الرجل الذي لم يكن له أبداً أبناء، نهارة كاملاً، كان يعده أبهج نهارات أسبوعه.

وأنا على حافة البحيرة، كنت كلما بدأت في تذكر وقائع الساعات الخمس في هذا الصباح بهانوي، تقفز إلى ذهني لحظة الوقوف أمام «هوتشي منه»، النائم بسلام، وجمال حقيقي، داخل ذلك الصندوق من البلور الصافي المغمور بالأضواء، لقد حصلت بجهد عنيد على تصريح بالزيارة، وعبرت حاجز الحرس المسلح الأول، ثم الثاني، فالثالث غير المسلح، وانتظمت مطيعاً، مخفياً كل توتري في قلبي ضمن طابور الزائرين الطويل، في الشارع الرحيب الممتد باتساع ميدان هائل أمام الضريح، مضيت كأني في سرنمة، لأصعد درجاً ملتفّاً خافت الأضواء، وأعبر دهليزا يشتد فيه الضوء كلما سرت قدماً، ثم توقفت بلمسة

خفيفة حاسمة لصدري، و بلمسة مثلها لظهري دُعيت للدخول، فبدالي أنني
أحلق في سماء قريية، لحلم ساطع غير معقول.

من بين عديد الأسماء «الأممية» التي كانت صروحاً في زمن صباي اليساري
المتبدد، لم يبق معي غير اسم «هوتشي منه».. قضيت أربعة أعوام في الاتحاد
السوفيتي، وتسكعت في الميدان الأحمر عشرات الساعات، ولم أفكر مرة،
حتى من باب الفضول، أن أقف في الطابور الطويل، الذي يتلعه باب الضريح
الصخري الداكن المصقول، الذي يرقد في جوفه جثمان لينين المحنط
داخل صندوق زجاجي، وزرت بكين وتمشيت طويلاً في ميدان «تيان آن
مين»، على مسافة خطوات من القاعة التي سُجى فيها جثمان ماوتسي تونغ،
المحنط في صندوق زجاجي أيضاً، وترددت، فلم أقطع هذه الخطوات لأطل
عليه.. أما هوتشي منه، فقد طرت إليه عندما برقت الفرصة، من الشرق
الأدنى إلى الشرق الأقصى، باتساع آسيا كلها، وفي رحلة مضنية، لأستيقظ
قرب الفجر في هانوي، متهيئاً بقلب مختلج، وبصر ندي، للقاء حقيقي خاطف،
معه.

لقد أوصى رفاقه أن يدفنوا جثمانه بعد موته، لكنهم خالفوا وصيته باسم «حق
الشعب في رؤية رمز حريته»، وعلى الرغم من خشونة هذا (الحق)، فإنه أتاح لي
لحظة من أرق لحظات عمري، فالشاعر الذي أحببت قصيدة حياته في صباي لم
يخذل مخيلتي، بل فاض عليها بأكثر مما تصورت، كان شفافاً، ورقيق الجسد
والملامح بشكل بديع، قسمات وديعة، وشعر فضي حريري تاماً، وكان مغمضاً
عينيه في طمأنينة وارتياح.. تذكرت صياغته المرهفة لمعضلة عنف الضحية في
مواجهة قسوة الجلال، تذكرت قوله للأمريكيين الغزاة: «للأسف.. أنتم تأتون
لتقتلونا، فنضطر إلى قتلكم، وهو أمر محزن». نعم، أمر محزن.

تذكرت زهد حياته، وطعامه القليل، وثيابه الخفيفة، ونعليه المصنوعين من
أطر عجالات الطائرات الأمريكية التي أسقطها رجاله البسطاء، وفكرت في أنني

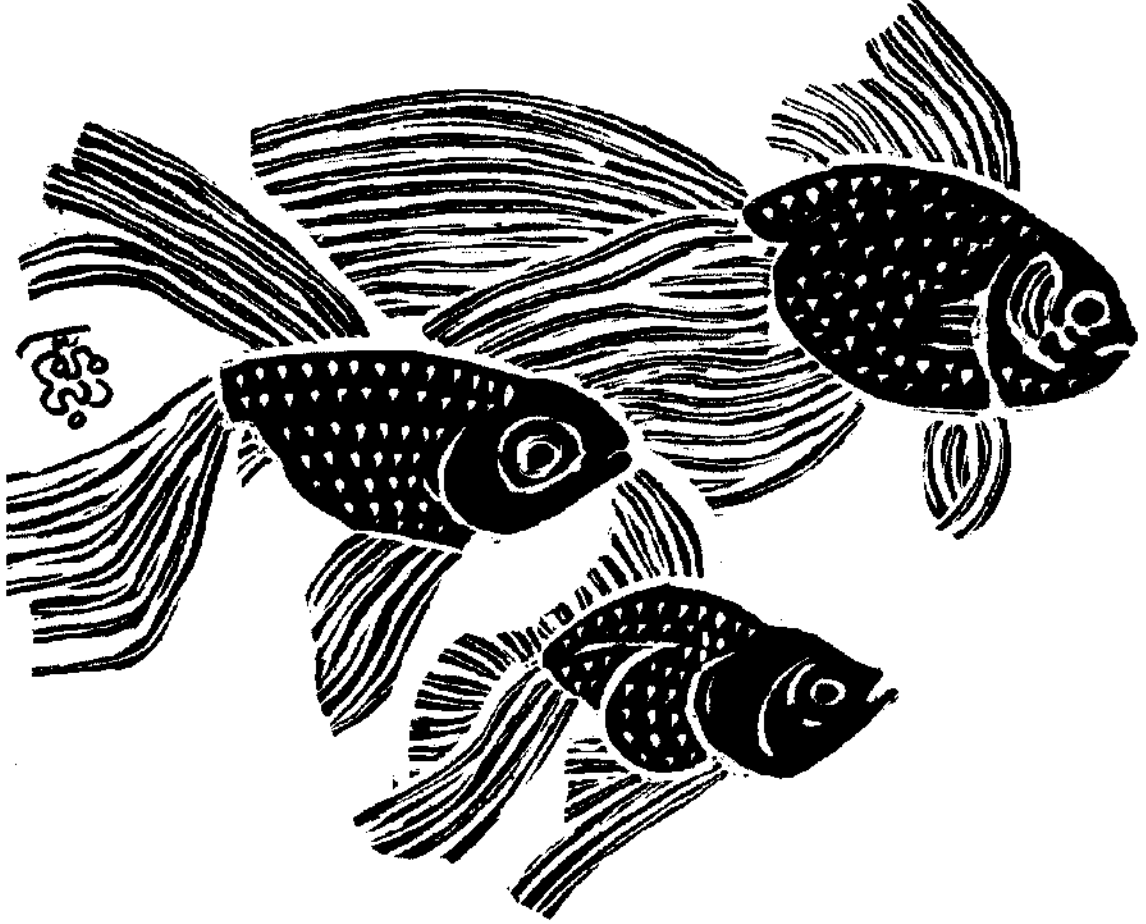
ربما كنت على حق في الإبقاء على محبته، كل هذه السنين، ذكرى طيبة من أيام صباي المبتعدة، ولا أعرف لماذا استدعى شرودي (السياسي) على حافة البحيرة التي أُسميت باسمه، ذكريات أبعد ما تكون عن السياسة، لكنها جميعاً ذكريات عذبة، لأناس فيهم عذوبة، ولا رابط بينهم أوضح من أنهم بشر طيبون، بشر بعيدون بتكوينهم عن العنف والتكبر، وفياضون بالرحمة والتسامح، مواقف، ومؤازرات، واثتناس، ومودة، وبوح، وصفح، وما إن وصلت بالتذكر إلى لطائف جدتي، حتى انتبهت إلى خلو المكان من حولي، فلم يكن هناك أحد على الدرج الحجري المفضي إلى مياه البحيرة.

نهضت متجهاً إلى الدرج، وهبطت حتى الرحبة الملامسة للماء، ووقفت أكرر ما كان الناس يفعلونه أمامي على مدار الوقت، مقلدين «هوتشي منه» عندما كان يقبل لإطعام السمكات الأرجوانية الصغيرة، التي رباها في مياه البحيرة. لقد اعتادت كلما صفق لها أربع تصفيقات بيديه أن تطفو، مشرّبة برؤوسها، فاتحة أفواهها الصغيرة، تلتقط ما يقدمه لها.

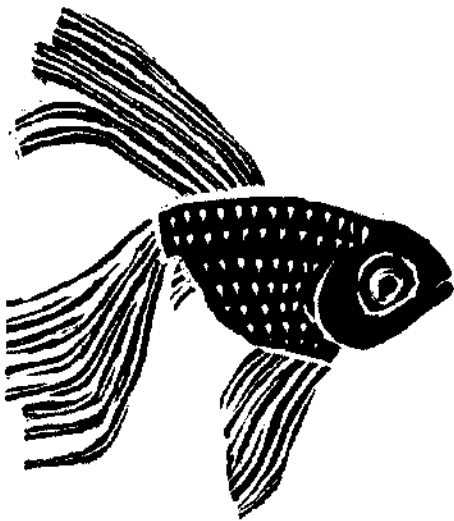
صَفَقْتُ أربع تصفيقات، فلم تظهر على سطح المياه بقربي أي أسماك، صفقت ثانية وانتظرت، ولم تظهر، كررت تصفيقي وانتظاري مرة ثالثة، ورابعة، ثم أمعنت في التصفيق بغیظ وتسارع، ولم يوقفني إلا سماعي لصوت متواضع النبسة يأتي من خلفي، يقول بإنجليزية متعثرة على لسان آسيوي: «هكذا لن تظهر».

فهمت أن الجملة تعني أن السمكات الأرجوانية الصغيرة في البحيرة، لن تتجلى لي، فاستدرت لأرى أحد حراس المكان المدنيين يطل عليّ من شرفة الطابق الثاني في البرجولة الخشبية، استدرت إليه سائلاً: «ولماذا لن تظهر لي؟». قال: «لأنك تصفق دون أن يكون معك طعام لها.. أراك لا تحمل شيئاً».. سأله متهمكاً: «وهل تراني الأسماك من تحت الماء؟» أجاب بتواضع قاطع: «إنها تعرف.. إنها تحس».

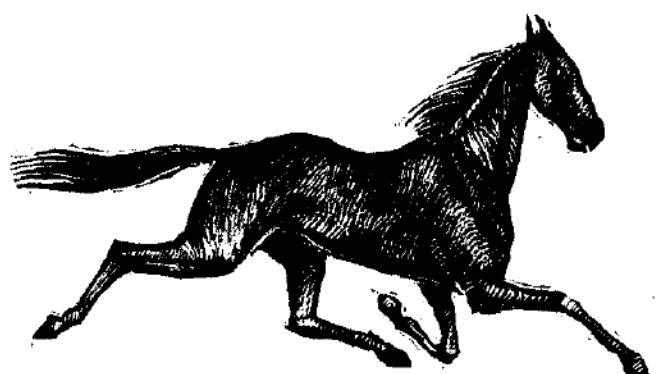
تذكرت أن الذين تجلت لهم السمكات أمامي كانوا يصفقون، فتظهر، ويلقون إليها بطعام من أكياس صغيرة، يخرجونها من جيوبهم، أو من تحت آباطهم.. وبعضهم كان يلقي إليها بفتيت خبز من بقايا طعام يلتهمه، كان هناك دائما طعام في أعقاب كل تصفيقات أربع.

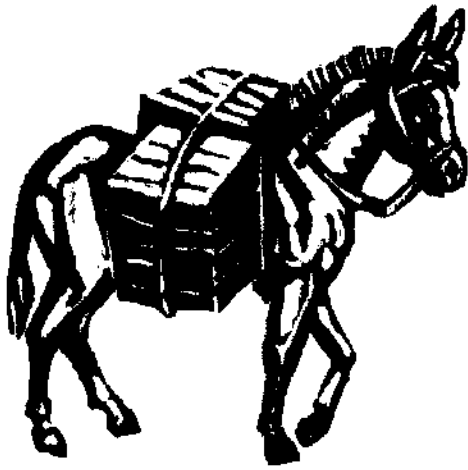


ألقيت نظرة أسيفة على مياه البحيرة وأنا أمضي، وكنت أفكر في ضرورة أن أحضر معي شيئا؛ لأطعم به هذه السمكات، إن قُدر لي أن أعود إلى المكان مرة أخرى. ■



منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي





- ولما بلغ المأمون اختلاط من حال البريد، وجه تمامة بن أشرس، ليتعرف له ذلك. فلما رجع إليه وسأله، قال: «يا أمير المؤمنين، مررت بسكة فإذا بغل وقد عدا على رجل عليه طيلسان أخضر، يظنه حزمة علف، فعدا الرجل، وعدا خلفه البغل، فصحت بالرجل «اطرح الطيلسان»! فلما طرحه، وقف البغل يشمه. (الجاحظ - كتاب القول في البغال)
- عجبت لقوم إذا قيل لهم من أبوكم؟ قالوا: «أنا فرس». (الجاحظ - كتاب الحيوان)
- البغل المتولد من الفرس والحمار، إن كان الذكر حماراً، فشديد الشبه بالفرس، وإن كان الذكر فرساً، فشديد الشبه بالحمار. ومن العجب أن كل عضو منه يكون بين الفرس والحمار وكذلك أخلاقه؛ فليس له ذكاء الفرس ولا بلادة الحمار، وكذلك صوته ومشيه. ولا شك في عقمها، لكن منهم من يقول: إن الولد لا يتعلق في رحمها، ومخه إذا طعم إنسان منه ينقص من جميع حواسه، حتى يبقى كالنائم، وتأكله المرأة لاتحبل أبداً. (القزويني - عجائب المخلوقات)

بغال

استيقظ مبكراً كعادته، لكنه لم يخرج من خيمة العريف الخاصة به منشراحاً، يفتح ذراعيه وعينييه وفمه على رحابة المنظر الرائع من حوله، الجبال وهي تتوالى أمام بصره بتدرجات لونية فاتنة، تبدأ بالأخضر فالزيتوني فالبنفسجي، حتى تبدى في الأفق البعيد بلون دخان رمادي مزرق، والوديان المتناوبة في العمق تحت هامات الجبال، ومسارب الطرقات الدقيقة التي تدور حول المرتفعات وتنساب في الأودية.. لم يؤد فرحان تمارين الصباح المحتفية بهواء هذه الدنيا

آخر في شق الطرق الجبلية الصعبة، منفردة دون قيادة بشرية، وبشبات واحتمال فائقين عبر الدروب الجبلية الوعرة والمتوارية عن الأنظار، درّبها على اجتياز هذه المفاز سِيَّاسُ بَغَالٍ محنكون، يقطنون القرى الجبلية المتناثرة بتباعد بين قمم وسفوح هذه السلسلة من الجبال، التي ترسم الحدود بين بلدين. بلد منفتح على كل شيء في جانب، وبلد مغلق على كل شيء في الجانب الآخر. تم تدريب البغال لصالح شبكة واسعة من المهربين بين البلدين، على الرغم من اختلاف الأنظمة، في أحد الجانبين يتم تحميل البغال بالبضائع المستوردة، والمحظور دخولها في الجانب الآخر. تستمر رحلة البغال نصف يوم كامل، حتى تصل إلى أهدافها.. في البداية كانت رحلات بغال التهريب تتم تحت جناح الظلام، لكن عندما تغلّغت الشبكة في نسيج المتنفذين في الحكم، لم يعد الليل شرطاً لتلك الرحلات البكماء الثمينة.. صارت قوافل بغال التهريب تشق دروبها الجبلية في النهار كما في الليل، بل في حراسة النقاط الحدودية نفسها، التي كانت تنال نصيبها، إما في هيئة مكافآت مالية منتظمة تصل إليها من المهربين سرّاً، أو من الإغارة على بعض القوافل التي لا تصدر أوامر واضحة بتركها تمر في سلام؛ إما لأنها لم يُدفع عنها، أو لم يُدفع كفاية. كانت المهربات أشكالاً وألواناً وكلها تتزامن مع ما يشع أو يندر وجوده في البلد المغلق على نفسه، معظمها مما يُمنع استيراده من مواد وأجهزة توجد بوفرة في بيوت أهل السلطة، وأصحاب النفوذ، وكثير منها مثيل لما ينتجه هذا البلد نفسه، وتُفتعل الأزمات في توافره، أشياء عرفها فرحان بالمعاينة عندما كان يتلصص هو وعساكره على ما تحمله القافلة التي يُغضُّ النظر عن مرورها عن قرب، أو من خلال نهب القافلة التي يغمزون بمصادرتها، أو تلك التي يومنون بنهب القليل منها، فأى شيء يمكن أن تحتويه شحنة هذه القافلة، التي لا يوحون بتمريرها ولا حتى بمصادرتها؟ «مخدرات؟ أسلحة؟ ثعابين؟ بلا أزرق؟».. ظل فرحان يدور حول نفسه وهو ينبس بالأسئلة، يزفر، وينفخ، ويتفل، حتى أعلن عسكري الاستطلاع عن أول ظهور للقافلة.

اقتربت الساعة من منتصف النهار، وظهرت البغال كما توقعت الإشارة، لكنها كانت لا تزال في الجانب الآخر من الحدود، مما لا يسمح بالتعامل معها على الفور. كان هذا مناسباً تماماً ليكمل فرحان تنفيذ بقية الأمر كما صدر إليه: ألا يجعل العساكر يبدلون ذخائر أسلحتهم إلا في اللحظة الأخيرة، جمع عساكره وجعلهم يفرغون الطلقات العادية من بنادقهم، ويستبدلون بها ذخائر أخرى. وما إن أمسك أحد العساكر بالطلقات قبل أن يعمر بها سلاحه حتى هتف مرتاعاً: «حارق خارق؟!» وصرخ فيه العريف: «ولا كلمة يا عسكري، نفذ، الأوامر تقول لا أسئلة، ولا كلمة». نعم قالوا: لا أسئلة، وقالوا أيضاً: «يتم إطلاق النيران عندما تكون القافلة في البير»!

أخذت القافلة تقترب على الممر الجبلي العالي، الذي يبعد عن مكان تخيم النقطة الحدودية بنحو ربع ساعة، وكان هذا يعني أن تصل القافلة إلى «البير» بعد خمس وعشرين دقيقة، فالممر العالي يدور حول أقرب قمة مواجهة لقمة النقطة، ثم يهبط رويداً رويداً إلى أعماق الوديان قبل أن يعاود الصعود، متجهاً نحو ممر آخر يرتفع، ويدور حول قمة تالية. البقعة غريبة الانخفاض في الوادي الأقرب إلى النقطة هي «البير»، وهي تشبه بئراً بالفعل؛ إذ تنحدر فجأة إلى أسفل، تتسطح غائرة لمسافة قصيرة، ثم تصعد ثانية بحدة؛ لتكون في مستوى الوادي، بئر ضخمة يستحيل على غير البغال الخروج منها، لكنها تخرج على الرغم من ثقل الأحمال فوق ظهورها، تتعثر وتكبو أحياناً، وتنهض في أنين، لكنها لا تتوقف لحظة عن الحركة إلى الأمام حتى تخرج، والأوامر هذه المرة تشدد على ألا تخرج، تقع البئر مباشرة في مسقط رأسي تحت نقطة العريف فرحان، هكذا ستكون البغال وأحمالها، عند وصولها إلى البئر، في المرمي المباشر والأسهل لأسلحة العساكر. لن يكونوا في حاجة إلى تصويب دقيق، فقط يدلون بفوهات أسلحتهم، ويواصلون الضغط على الأزنادة، لتنهمر الطلقات على أهدافها دون أن تطيش.

مرّت على فرحان أطول ثلث ساعة في حياته البسيطة الخشنة، إنه أمر نقطة حدودية منذ عشر سنوات، وهو في هذه النقطة فوق «البير» منذ أربع سنوات.

لطالما اعتبر نفسه محظوظاً بوصوله إلى هذه النقطة، صحيح أنه «دفع» لِيُنْقَلَ إليها، لكنه سرعان ما أدرك أنه الرابع بلا شك؛ فالنقطة عائدها كبير، سواء مما يصل إليه من نقود في مغلفات بلا عناوين، يلتقطها خلصة من عريف التموين، الذي تمر سيارته اللوري لتزويد النقطة باحتياجاتها كل شهر، أو من البضائع المهربة التي يباح له أن يختلس القليل منها عندما تصدر الأوامر بالمصادرة، هو يعرف أن كثيرين يصفون أمثاله بأنهم مختلسون ومرتشون، حتى عساكره الذين لا يحرمهم من بعض ما يناله، يتهامسون فيما بينهم بذلك، لكنه أب لعشرة أطفال ولديه زوجة، وأم عجوز مريضة، وأخت مقعدة، ثلاثة عشر نفساً عليه أن يعولهم في قريته البعيدة.. لقد استفتى نفسه وأصدر الفتوى: «الخطف من الحرامية ليس حراماً».. فماذا ينال هو مقارنة بما يناله المهربون الكبار في مكاتبهم الفخمة البعيدة؟ الكبار الذين ينسقون «اللعبة» كلها؟! لم ير الأمر طويلاً إلا «لعبة»، لكنه الآن يحس أن اللعبة تتحول إلى جد مخيف، عندما تصل القافلة إلى «البير».

مر ثلث الساعة وقافلة البغال تقترب، وهي في أقصى اقتراب لها ستكون على مسافة مائتي متر، ومع ذلك ظل فرحان يحس أن هذه الكائنات المقتربة بأثقالها تنظر بعيونها مباشرة في عينيه، عيون كبيرة، فيها طيبة عيون الحمير، ولمعة عيون الخيول، كحيلية وعندما ترمش يحس بلمس رموشها الطويلة لقلبه العاري مباشرة، ذكرته بعيون عياله في القرية البعيدة على ضفة النهر، عندما يلتمون حوله في الإجازة التي ينالها بتباعد، أسبوع كل أربعة أسابيع، ينفق من الأسبوع يومين في الذهاب والعودة، ولا يتبقى له وقت يقضيه مع عياله إلا خمسة أيام، لا يتعدون عنه خلالها أبداً، ولا يكفون عن النظر بعيونهم مباشرة في عينيه؛ حتى يداهمهم النوم.

لم ير خلال الدقائق العشرين، على الرغم من سطوع الضوء وتغير المنظر، غير عيون كائنات القافلة المتجهة نحو «البير»، لم ير سلسلة القمم التي تضيئها شمس الظهر؛ فتتألق ألوانها بتنوع خلاب، يكشف عن أطراف ألوان صخورها العارية التي نحتها الرياح، وغسلتها الأمطار، وشقتها يد الزلازل السرمدية.

طبقات لونية بهية تتابع من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل، وردية وشهباء، وضاربة إلى الزرقة، وثمة مساحات خضراء خضرة مشرقة، حيث تتكون في المواضع التي تسيل منها عيون الماء مروج معلقة في الشقوق الصخرية، لم ير خطوط الدروب، والمدقات، والممرات الطويلة التي لونها الضوء بياض ضارب إلى الحمرة، وهي تلتف، وتبعد، وتهبط، في تواصل طويل جميل خلال هذه الدنيا الجبلية البكر، لم ير السحب البيضاء الخفيفة التي تمر قريبة، يكاد يمد يده ويلمسها، لم ير أصفي زرقة لأنقى سماء فوق تلاوين الذرى السامقة، لم ير إلا تلك العيون الكبيرة الكحيلة طويلة الرموش تنظر إليه في عينيه، وبأسرع خمس دقائق مرت عليه في هذا المكان، وجد قافلة البغال المثقلة بالأحمال الغامضة على ظهرها تهبط، كأنها تنزلق انزلاقاً في «البير» الذي احتواها جميعاً، وقدّر وهو غائم الذهن أن عددها أكثر من عشرة.

وجد عساكره المصطفين على الحافة، يمسون بأسلحتهم في وضع الاستعداد، وينظرون إليه في صمت متسائل، رأى عيونهم تقترب محدقة في عينيه دون أن يغادروا مهابضهم، وكانت عيون الكائنات البكماء في البشر ترنو إليه أيضا وتقترب، شعر بدوار، وأرعبه أن يهوي ساقطاً في بئر العيون، فانطلق صوته كأنه يصرخ من غياهب صدره العريض الأشعر طالباً النجدة: «سلاaaaaح». ولم يتبق إلا أن يكمل أمر إطلاق النار. ■



● «رأيت في تاريخ نيسابور للحاكم أبي عبد الله، في ترجمة أبي جعفر الحسن بن محمد بن جعفر الزاهد العابد، أنه روى بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل، قال لريح الجنوب إني خالق منك خلقا أجعله عزًّا لأوليائي، ومذلة لأعدائي، وجمالا لأهل طاعتي. فقالت الريح: اخلق يارب، فقبض منها قبضة فخلق منها فرسا، وقال جل وعلا خلقتك عربيا، وجعلت الخير معقودا بنواصيك، والغنائم محازة على ظهرك، وبواتك سعة من الرزق، وأيدتك على غيرك من الدواب، وعطفت عليك صاحبك، وجعلتك تطير بلا جناح، فأنت للطلب، وأنت للهرب، وإني سأجعل على ظهرك رجالا يسبحوني، ويحمدوني، ويهللونني، ويكبروني». (الشيخ كمال الدين الدميري - حياة الحيوان الكبرى)

● الخيل غالبا ما تخشى من التغيير الذي يحدث في بيئتها، بل يبدو أن الخيول الجفولة تنزعج من تغيرات متخيلة؛ فقد يتسبب شيء مرّ به الحصان عددا لا يُحصى من المرات في حرّنه، على الرغم من عدم حدوث أي تغيير. (جيفري ماسون - حين تبكي الأفيال)

اكتئاب الخيول

لم يتعرّ الحصان الذي أمتطيه وسط منطقة الألغام لأقول إنه كبا، فهو لم يقذف بي عن ظهره في لحظة خاطفة، لم يطر حني على الأرض بغتة، بل وجدته ونحن في منتصف الطريق يتمهل، ويمعن في تمهله، ثم يتوقف ساكنا كأنه انطفأ، لبث على سكونه هذا لحظات، بعدها أخذ يتداعى تحتي، ويميل وهو يتداعى، فينطرح على جنبه، وأجد نفسي إلى جواره على الرمل منقلبا على ظهري، يدي تتشنج على مقبض حقيبتني الطبية التي لم تنفتح، وجسمي متيبس على الهيئة التي وقعت بها، تجمدت كأنني تمثال، وكنت مبهورا بتوهج ضوء النهار، أكاد لا أبصر.

لا بد أن حدقتي بلغتا أقصى اتساعهما في هذه اللحظات، إذ سطع شحوب الرمال فجأة، وبدت السماء ناصعة البياض، والتمتع سطح البحر المحدق بالجزيرة من كل اتجاه، كأنه مرآة صقيلة يخيلها ضوء الشمس، الشمس التي استعرت في الأعالي، وفي عيني، وعلى جلدي الذي أحسسته يحترق.

شعرت بسخونة داخلية تجتاحني، وعرقاً غزيراً ينضح من جسدي، وكان ذهني كأنما ينصهر، لم يحدث أي انفجار لأي لغم، تأكدت من ذلك، وأدركت أن البوارق التي غمرتني لم تكن إلا انعكاسات الخوف، والمباغلة في داخلي. تشوّشت مزدحمًا بألف صورة وصورة عن الموت نسفاً، أو لدغاً، أو عطشاً، وعن الحياة بأطراف مبتورة، وعن النجاة في الوقت ذاته، ثم بدأت أبرد شيئاً فشيئاً، والذهن يصفو، فأسمع في السكون السابغ هسيساً لم أستطع تصديقه، مددت يدي مبطناً حذراً نحو خطم الحصان، أحسست بأنفاسه الدافئة الرطبة تتردد، فنهضت قافزاً في مكاني أصرخ: «لم يمت. لم يمت. لم يمت».

وثبتت روحي فرحاً بالنجاة، وسرعان ما هوت يأساً في أعقابها، فحالما ركعت إلى جوار رأس الحصان أتملاه وألمسه، أدركت أنه لم يمت، لكنه حي أقرب إلى الموت، لقد استلقي وثبت على وضع استلقائه، ليملك هكذا حتى يموت، عياناً شبه مغمضتين انطفاً بريقهما، ولا يطفرف لهما جفن، وأنفاس تتردد هامة خلال فتحتي منخاريه اللتين ارتختا في ذبول.

كنت أسمع عن هذا الأمر من زملائنا البيطريين، قبل أن تطأ قدمي أرض الجزيرة من دون أن أصدقه، فشرعت متردداً ألمس بطرف سباتي قرنية عين الحصان، لم يرمش، أشد شعر معرفته بقسوة، لا يتحرك، أخرجت من حقيتي إبرة اختبار الإحساس، ورحت أخزّ بها جسد الحصان عميقاً في أماكن عدة، لم يبد استجابة، أدنى استجابة، لقد استلقي متماوئاً هكذا حتى يموت، وأموت بدوري أنا الآخر، فلو أنني حاولت السير وحدي، لكنت عرضة لانفجار لغم من كثير الألغام، التي بثها الإسرائيليون في الجزيرة فترة اجتياحهم القصير لها، وإن

توقفت في مكاني فالموت قادم بضربة شمس، أو ناب حية، أو ذنب عقرب من تلك التي لا تكف عن الطفو، سوداء على سطح الرمال، ولو أنهم انتبهوا لغيابي، وشرعوا في البحث عني، لما وجدوني إلا جثة أو مشروع جثة.

صار يأسى مطلقاً فلم يعد أمامي إلا التسليم باحتمال الموت، ارتميت على ظهري إلى جوار الحصان الساكن، أهدق في السماء التي استعادت زرقتها، وكنت وأنا أهدق أجترُّ الصور...

يا الله، إلى أي حد كنت منتعشا بالنداء الذي وصل من الجزيرة إلى مستشفانا، يستدعي طبيباً لمناظرة «حالة طارئة» لمريض، كأنني كنت في انتظار هذا النداء، ألححت أن أكون من يذهب للتلبية، واندعش زملائي لهذا الإلحاح، فمعظمهم لا يحب مهمات البحر، وتلك الجزر المقفرة والمعزولة وسط المياه، وزادت دهشتهم حينما عرفوا بطلبي المبيت في الجزيرة، إذ لم تتطلب حالة المريض نقلاً سريعاً إلى المستشفى بصحبتني.

ل طالما ظللت مشدوداً إلى هذه الجزيرة، دون أن تطأها قدماي، فهي تلوح طيفاً في أفق المياه عندما يكون الجو صحواً، وتختفي كأنها لم توجد قط عندما يعلو الموج، ويرتفع الضباب فوق الماء.. الجزيرة المحاطة بهالة من الحكايات وسط البحر الزاخر بالأسماك الملونة، والقروش النهمة، وحدائق الشعاب المرجانية خلاصة الألوان، فنارها الشهير الذي قاوم منه «النقيب» حين داهم الإسرائيليون الجزيرة، ولم يكن معه غير عدد محدود من الجنود، قضوا جميعاً في مواجهة الإنزال المعادي المسبوق، بقصف جوي والمدجج ببرمائيات مدرعة ومدفعية ثقيلة، صعد إلى الفناء وظل يقاوم حتى حسبوه سرية كاملة، نفدت ذخيرته، فقصفوا موقعه بكثافة نيران تكفي لصهر مدرعة قبل أن يصعدوا إليه. فوجئوا به مجرد رجل وحيد بسلاح فردي، وكان ينزف بغزارة، لم يؤدوا له التحية التي يستحقها «محارب شجاع» كما في أعراف كل الجيوش والتقاليد

العسكرية، بل أفرغوا في جسده النازف مزيداً من الطلقات، وفقثوا عينيه وهو يحتضر، ثم ألْقَوْا به من أعلى الفنار ليتمزق جثمانه على قاعدة الصخور البحرية الصلدة. حملت الجزيرة اسمه، لكن اسمها القديم، المجرد (الجزيرة)، ظل متداولاً، جزيرة تتحلقها المياه الفيروزية، كاشفة عن طوق رقيق ساحر من حدائق البحر الملونة يحيط بها، كأنه إطار من الضوء وسط الزرقة الداكنة للمياه العميقة، جزيرة يحكون عن ظهور الغزلان فيها، غزلان أحضرها الملك السابق عندما زار الجزيرة، تركها ونسيها ونسأه الزمان، أهملتها تغيرات العصور وذاكرة الناس، ويُحكى أنها تظهر بين الحين والحين مثل أحلام ناعمة خاطفة، تتجلى هنيئات ثم تتبدد، جزيرة حولها حقد الإسرائيليين إلى حقل الغام قبيل انقشاعهم عنها، وبات السير الطليق فيها قاتلاً، إلا على ظهور جياد مدربة الحواس، مرفهة الخطى، جياد تعرف طريقها عبر المسارب الآمنة، منتقاة من أجود الخيول العربية، خيول تجيد الرقص على أنغام المزامير، وشدو النايات، وإيقاع الدفوف، أجسامها بديعة التناسق، وعيونها جميلة كحيلة، وخطاها تصعد وتهبط بدقة تتناسب مع الموسيقى، التي تنأى رهاقتها في النصف دقة والربع «تون»، خيول مثل الصبايا الجميلات، يزيد حسنهن التنعم والتدليل، وتشوههن القسوة والشقوة، خيول مهترت في عبور المسارب الدقيقة بين اللغم واللغم، مثلما هي ماهرة في البخترة بين النغمة والربع نغمة، لكنها لم تحتمل ما صارت إليه حياة الجزيرة، لم تحتمل جفاف الرمل ويوس الصخر، وسأم اللغظ المتكرر للبحر، وملوحة الماء، وجفاء سكانها الذين علمتهم حياة الجزيرة اعتياد الصمت، والهروب إلى النوم الطويل، أو الشرود في أحلام يقظة خاوية لا تنتهي، صارت الخيول تكتئب في الجزيرة، وبقدر ما هي رقيقة، كان اكتئابها عاصفاً؛ فهي تُباغت سيّاسها من الفتيان قليلي الخبرة بالجياد، تقفز في البحر، وتسبح في جنون؛ حتى تبلغ مواضع تجمعات أسماك القرش، تسلم رقابها الطويلة لطيفة التقوس، وأكفالهـا الرغدة للفكوك المفترسة، وتغمض عيونها عن العيون القاتلة، التي لا جفون لها، والتي تصير أقسى وأحدّ، كلما اصطبغت مياه البحر بحمرة

الدماء. خيول عديدة انتحرت على هذا النحو، وكانت تختفي بكاملها في بطون القروش النهمة خلال دقائق معدودة، أما تلك التي حيل بينها وبين القفز إلى مسلخ القروش، فإنها كانت تنتحر على البر بشكل أهدأ وبعناد لا يريم، تنهاوى فجأة، وترقد بلا حراك، حتى تموت بالجفاف عطشاً وجوعاً.

كنت أستعيد حكايات الجزيرة، وأنا واقف على ظهر «اللانث» في الطريق إليها، اجتزنا مساحة المياه الفيروزية الضحلة في الشريط الساحلي، وبدأنا نوغل في الزرقة، نلتقي بأسراب سمك «الباربون»، التي تظهر كشرارات من فضة ونحاس، تطير بارقة في قوس واسع فوق المياه، ثم تغوص مختفية بين الأمواج. وفي الزرقة العميقة المكلفة بياض الشبج، كانت أجسام الدرافيل الناعمة والوثابة تلمع في قفزات مرحة، أما في الزرقة الأعماق، والتي تقارب السواد، فلم يكن هناك غير الموج الذي يُخفي في الأعماق السحيقة، وحوش البحر ذات الفكوك المطروسة بصفوف الأسنان المثلة المدببة كالمناشير، لم يكن أحدها يطل ولو بطرف زعنفته الظهرية عبر الماء، لكن القتامة الناعمة للدوامات في هذه البقعة كانت توحي بوجودها القاتل.

مع الإبحار أبعد في المياه العميقة، رأينا الزرقة تصير أفتح، والنوارس تحلق بيضاء في ألق الشمس، ثم ظهرت الجزيرة فجأة كأنها صعدت لتوها من أعماق البحر، وسرعان ما لامس زورقنا المرسى الخشبي الممتد من رصيف الجزيرة، وجدت ثلاثة رجال في انتظاري، ومعهم حصان بني جميل، أبهجتني الاستشارة، فقفزت قفزة واسعة إلى المرسى قبل أن يلتصق به الزورق مكملًا توقفه.

رحب بي الرجال عند المرسى، وكانت آثار العزلة والحرمان الطويل من الوجبات الطازجة بادية عليهم، أجسام ضامرة، وجلود داكنة في شحوب، وثمة بقع فاتحة ترقش وجوههم، كانوا يتكلمون باتساد، وأصواتهم تخرج متآكلة خفيضة، سألتهم عن المريض، فأخبروني بأن الحصان سيحملني إليه في طرف الجزيرة الآخر، ولاحظت أن الحصان لم يكن مربوطاً، ولم يكن أحدهم يمسك

به، ومع ذلك يقف هادئاً، وإن كان متململاً بعض الشيء، ولما رأني أحد الرجال أنظر إلى الحصان متحيراً، نبس يطمئنني: «هو حافظ الطريق.. حافظ الطريق».

رأيت في المكان «كُشْكَا» خشبياً وضع أنه لحراس المرسى، وكان به تليفون عتيق، سألتهم إذا ما كان التليفون يعمل، وإذا ما كان باستطاعتي أن أتصل بالمريض أو بذويه، كان التليفون يعمل بكفاءة لا ينم عنها مظهره المهلهل، وسطحه الصدئ.. استفسرت عن الأعراض التي يديها المريض، وقدّرت أن الحالة ليست جراحية، ولا تستدعي نقلاً سريعاً إلى مستشفىنا في المدينة، أوصيت بإعطائه حقنة مزدوجة من مزيلات الألم، ومضادات التقلص لحين وصولي، وشعرت بارتياح لانفساح الوقت أمامي؛ كي أعيش تلك الجزيرة، وحكاياتها، ببعض التمهّل.

امتطيت الحصان وناولني أحد الرجال حقيتي الطبية وأنا على صهوته، ولولا أنني أمطرت الرجال الثلاثة بسيل من الأسئلة قبل أن أركب؛ لما أخبروني بشيء مما كان يتوجب عليهم إخباري به، إما لأنهم كانوا مكتئبين وغير مكترئين، أو لأنهم كانوا مطمئنين إلى عدم حدوث ما يعرضني للخطر، أجابوني بالأحث الحصان على الإسراع أبداً، خصوصاً في منطقة الألغام الكثيفة التي يكون الوصول إليها بعد خمس عشرة دقيقة، وألا أضرب أو ألمس رقبتة من أحد جانبيها حتى لا يحيد عن مسربه، وألا أغني في الطريق أو أدندن؛ حتى لا يطرب ويتمايل أو يتبختر، فيدوس لغماً ينفجر في كلينا! فهمت منهم أنني ينبغي أن أكون نائماً أو شبه نائم على ظهر الحصان، وأن أترك ليقظته وحدها أمر إيصالي سالماً. ويبدو أن هذه الفكرة قد تحولت إلى إحياء ذاتي، أو شك على تنويمي بالفعل، إذ انتبهت إلى تمهّل الحصان وأنا في شروء أقرب إلى النعاس، نفضت رأسي لأفوق عندما وجدته يتوقف، وكان دُعري مضاعفاً عندما أخذ يتهاوى، ويرميني إلى جانبه.

مرّ دهر من القيظ فوقنا، والتهاب الرمل تحتنا، وبدأت أشعر بالعطش يشتعل في حلقي، برغم أن الساعة في يدي لم تكن تشير إلى أكثر من خمسين دقيقة مضت منذ غادرت المرسى، أي خمس وثلاثين دقيقة منذ تهاوى الحصان، كان لا يزال راقداً على جنبه لم يتحرك، ولم يطرف، ولم يستجب للتنبيه، حتى بعد أن عاودت وخزه بإبرة الأعصاب إلى حد الإدماء.. بدأ القنوط يغزوني ويتخلل كياني ويصل أخيراً إلى نقطة السخرية، السخرية المرة، فقد عهدت نفسي، كما أهلي معظمهم، عندما يبلغ بنا اليأس مداه ننزع إلى السخرية، نمزح، رحت أمزح مع الحصان، ماسحاً على رقبته وعلى شعر معرفته الغزير المتماوج، أكلمه بمزاج رائق: «إيه يا حصان يا عبيط.. لك حياة واحدة وتريد أن تموت.. ألا تعرف أن وراء هذه الجزيرة بحرًا، ووراء البحر شاطئًا، وعند الشاطئ مراعي خضراء، تموج بلذيد العشب، وتخللها جداول عذبة في مائها سكر، وهناك، هناك أفراس بديعات الحسن، نديات العيون في انتظارك.. آه يا حصان يا عبيط!». مكثت أمسح على عنقه براحتي، وأنا أتحدث عن تلك المراعي الخضراء هناك، وأشرد جاعلاً فيها مكاناً للبشر، بل لنفسي تحديداً، حيث ألتقي بأكثر من أحببت، وأنال أفضل ما اشتهيت، استغرقت في نشيدي حتى صار حلماً، وتكاثف الحلم فتحول إلى أحاسيس، أو شك أن أحيائها وأحيا بها وأنا محاصر بترجيح الموت في دائرة ضمنية، وإذ بي أحس بلمس رقبة الحصان يتغير، يصير شعره مُدغدغاً لبطن كفي، وعضلاته تنبض مثل أوتار يجري شدها، نهضت مائلاً أنظر إلى رأسه، فوجدته يفتح عينيه اللتين التمتعا بتألق عجيب، واصلت نشيدي وتمسيدي وكأنني أنشد لنفسي وأمسّد روعي، بل كنت أنشد لنفسي وأمسّد روعي، وإذا بالحصان يهم من رقدته الثقيلة، يعتدل ويلم قوائمه وينفض رأسه، كأنه يصحو من نوم عميق، وينهض، ينهض وأنا أعلق برقبته غير مصدق ما حدث، كيف حدث؟.. لماذا حدث؟ هل فعل التمسيد لأطراف الأعصاب في جلده هو ما جعل جهاز الحس الذي أطفأ نفسه تهيوًا للموت، يعيد إيقاد أنواره؛ تأهباً

لمواصلة الحياة؟ لقد عاينت وأنا طبيب امتياز في دورة طب الأطفال رُضعًا، شارفوا على الموت بفعل الجفاف، ولم تعد أوردتهم تستقبل إبرة المحاليل، ثم رأيتهم ينهلون من هذه المحاليل ذاتها بالفم، وهم في أحضان أمهاتهم اللائي يمسخن على ظهورهم، وهن يستقطرن من أعماق أرواحهن خلاصة أدعية الرجاء. هل تحول صوتي وأنا أنشد الحلم إلى نداء لا تهم فيه الكلمات؛ لأن المعاني اكتنفت نبرات الصوت؟ لقد كان صوتي المنشد يرن مؤثرًا في صدري أنا نفسي، حتى أحسستني مشدودا إلى هذا الرنين، وكأنه صار غاية مشبعة بذاتها وفي ذاتها.

أحسست بأنفاس الحصان قوية قرب رأسي، وأنا أقف إلى جواره، ورأيتة ينفض أذنيه ويهش بمعرفته وشعر ذيله الجميل الطويل كأنه يدعوني للركوب، ركبت، وقد نسيت تحذيرات الرجال عند المرسى، بالأأس جوانب عنق الحصان. كنت أربت جانب عنقه، وأمسخ عليه براحتي، وهو يمضي متبخرًا كأنه يسير في دروب لحن شرقي، تعزفه المزامير والنايات والدفوف، دونما ضوضاء أو صخب، ولم تكن في قلبي ذرة خوف من انحراف خطاه، نسيت حديث الألغام كأنني لم أسمعته من قبل، واشتملت بنشوة غريبة كأنني لا أركب حصانا يسير على الأرض، بل بساطا مسحورا يحلق بي فوق السحاب، وكنت آمل ألا ينتهي التحليق، لكن مريضا كان ينتظرنني عند الطرف الآخر من الجزيرة.

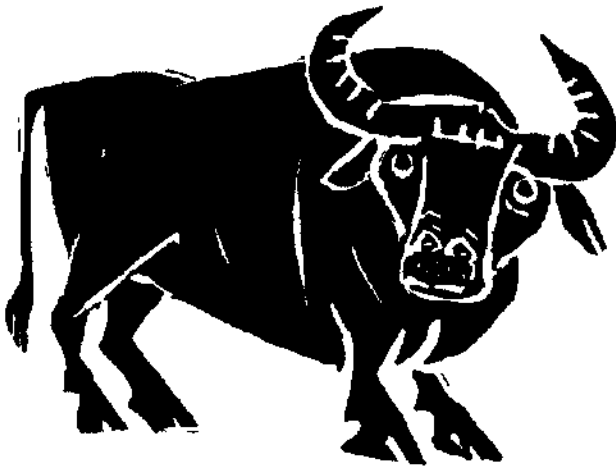
بزغ قرص الشمس كبيرا أحمر من قلب المياه، مغالبًا غبش الضباب البنفسجي في الصباح الباكر، وكنت يقظان مع النوارس أعاود الاتصال بالمدينة، بعد أن أدت مهمتي، واطمأنت على المريض، أطلب إرسال «اللانث» لإرجاعي، لقد رأيت كل ما أردت رؤيته في الجزيرة، ولم يعد عندي من الفضول المزيد، رأيت ما يراه الناس، وما لا يراه الناس، وما يمكن أن يروه لو أرادوا، رأيت أرض الجزيرة مفروشة برمال بيضاء ساحرة النعومة، مما نشرته ملايين المناقير الملونة لأسماك البغاء من طحين الشعاب المرجانية، اليابسة، الناصعة على مر الدهور

بينما المراجع تزعم أنها أرض صخرية جرداء، رأيت الفئار مضيئاً والجميع يؤكدون أنه مطلقاً منذ سنوات بعيدة، ورأيت الغزلان التي يظنونها سراباً وما هي بسراب.



عند الضحى أخبروني بقدوم الزورق لإرجاعي، فركبت الحصان، ذات الحصان، إلى الجهة الأخرى من الجزيرة عند المرسى، وكررت سيرة أمس بإمعان أشد، التريت والتمسيد على جانب العنق الذي حذروني من لمس، والنشيد الذي تقاسمناه حلما، ونبرات صوت تغني عن الكلمات، اجتاز بي الحصان حقل الألغام راقص الخطو طروبا، ولم أكن خائفاً من رقصه ولا طربه. وجدت الزورق متأهباً للإقلاع عند المرسى، فنزلت عن ظهر الحصان، وهو يحمم كأنه يقول شيئاً، أو يريد أن يقول. ولما اندفع الزورق مُقفلاً، مبتعداً عن رقيقة الماء الفيروزي، ميمما شطر الزرقة العميقة، سمعت صهيل الحصان ورائي فالتفت، كان يشب عالياً رافعاً قوادمه في الهواء كأنه ينادي، وكانوا يحيطون به، ويجهدون للسيطرة عليه وإنزاله. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي



● الجاموس حيوان عظيم لا ينام البتة، ولعله في بعض أوقات الليل يغمض جفنه، زعموا أن في دماغه دودة تتحرك دائما لاتخلية ينام، ويدفع السباع عن نفسه، ويقتل التمساح مع عظم بدنه، ولذلك يسرحون الجواميس على طرف النيل. والجاموس يمشي إلى الأسد، وهو ثابت الجنان وليس له إلا قرنه، وليس في قرنه حدة، فضلا عن حدة أطراف مخالب الأسد وأنيابها، ويغلب الأسد قالوا: إنما يغلب الجاموس الأسد؛ لأنه يذب الأسد عن نفسه والأسد يريد أن يجعله طعاما له. (القزويني - عجائب المخلوقات)

جواميس

القتلى: تسعة من البشر، وعشر جواميس، وخمسة عشر من الخراف والماعز، وعدد كبير لم يتم تحديده من الدواجن، التي لم تكن بينها الأرانب لأسباب لم يتوقف أحد لتفسيرها، وفي غير الأرواح، احترقت سبعة دورأت النيران على اثنتين منها تمامًا، ودُمّرت ثلاثة حوانيت للبقالة، انهارت ثمانى واجهات لبيوت طينية، وتساقطت كل أسوار الأجران، أما أكوام الروث وأكداس التبن، فقد نُثرت كالغبار في سماء القرية كلها بعد منتصف الليل، ولم تهدأ إلا عند الفجر حيث هبطت هبوطاً وثيداً وثيداً، لتغطي الدور، والبشر الذين هدهم التعب، وروعتهم الجائحة، وكانوا ييكون بعيون جافة، وبلا نحيب على ضحاياهم الذين شرعوا يهيئونهم للدفن في الصباح، رجلان أحدهما في الثلاثين والثاني تجاوز الثمانين، وامرأتان في منتصف العمر، إحداهما حامل في شهرها التاسع، وخمسة أطفال، تتراوح أعمارهم بين الستة الأشهر والأحد عشر عاماً.

الأضواء: أضواء مصابيح النيون بدأت انتشارها الكاسح في ليل القرية منذ عشرين عاماً، منذ راحت محطة تقوية الإرسال الإذاعي تبث موجاتها من المبنى الصغير، الحديث المحاط بالأسوار على الطريق الرئيسي أمام القرية. العمال الذين تم توظيفهم في المحطة من أبناء القرية كانوا عمالاً زراعيين معدمين، لا يملكون ولا يستأجرون أرضاً يزرعونها، ويكثريهم من يمتلكون الأرض أو يستأجرونها للعمل لديهم في المواسم، هؤلاء نقلوا الاكتشاف إلى القرية بعد أن التقطوا سره من المهندسين والفنيين في المحطة، فهموا أن هناك موجات قوية ترسلها هوائيات المحطة، لتحمل على ظهرها موجات البث، التي ضعفت بعد قطعها لكل تلك المسافة، آتية من مبني الإذاعة في العاصمة البعيدة، وأطلقوا على تلك الموجات الحاملة اسم «الحمير»، لقوتها وجلدها وصبرها على تحمل موجات البث المنهكة، وإيصالها حتى شاطئ البحر. ثم إن هذه الموجات (الحمير)، وهي تنطلق في دروب الهواء عابرة سماء القرية، كانت تعفر في الجو كهرباء تكفي لإشعال مصابيح «النيون» المستهلكة، التي لم يتبق فيها إلا القليل من بخار الزئبق الذي تعجز عن جعله يتوهج كهرباء الأسلاك، و«ترانسات» التيار، ونوابض «الاستارتر» المعتادة.

زحف الأضواء: تراكت على مدي العشرين سنة أضواء النيون، التي لم تكن مصابيحها التالفة تكلف شيئاً لتتوهج، بلا توصيلات كهربائية، وبلا تجهيزات إلا مجرد تعليقها على الحيطان، وقرب الأسقف، وفوق الأسوار، وبين أغصان الشجر، ولم تكن خيوط تعليقها إلا مما تيسر، نسلالات الأجولة، ومزق الثياب المهترئة، أو حتى خيوط التيل وأفرع اللبلاب.

مزيد من التوهج: منذ سنة، أو أقل قليلاً، أو أكثر قليلاً، أخذت أضواء القرية تتوهج في الليل زيادة؛ حتى أمست القرية من أكثر بقاع العالم إضاءة، إن لم تكن أكثرها على الإطلاق، وكأن لياليها صارت نهارات تضيئها شمس عديدة. فانتشار مصابيح توفير الطاقة «داي لايت» في مدن البلاد، أخذ يحيل مصابيح النيون - حتى وهي في كامل قوتها - إلى الاستيداع المبكر، وتكاثرت على

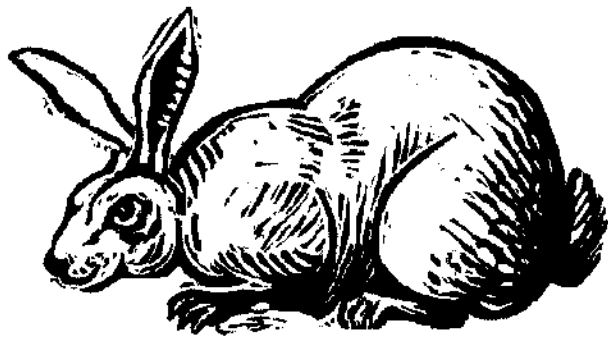
القرية مصايح النيون السليمة دون مقابل يُذكر، وكانت هذه لا تحتاج إلى التعليق حتى تصل كهرباء جو القرية إلى أقطابها، وتشعل ما بها من غاز وفير، مجرد وجودها ملقاة بطرفين مكشوفين كان كفيلاً بجعلها تتوهج بقوة، على أرض الشوارع والأزقة، وفوق الأسوار والأسطح، وفي حظائر البهائم، وداخل عشش الدجاج، وعلى جسور الترع، وفي كل الحقول.

لم يكن التغير مفاجئاً: حدث ما ظل يحدث عبر عقدين من الزمان، وإن تزايدت وتائره، وتضخمت ملامحه مع الوقت، فالمحاصيل المغمورة بنور الشمس في النهار، وأضواء النيون في المساء كانت تنمو أسرع، وأكبر، وأطول، وأوفر، وإن فقدت طعومها المألوفة. الأبقار صارت تأكل ليلاً ونهاراً دون توقف، حتى اقتربت من أحجام الفيلة، وكانت تعطي حليبا غزيراً خفيفاً، لكن نسلها صار شديد الضعف، يهلك معظمه في الأيام الأولى عقب الولادة. أما البشر فكانوا يزدادون ضخامة في الأبدان، ويميلون إلى الترهل والرخاوة في الحركة، تحول نومهم إلى إغفاءات متقطعة ومتواصلة على مدار اليوم، وخلال الليل المتوهج بالأضواء. لم يعودوا يؤوبون إلى مهاجعهم في المساء، ليغطسوا في جب النوم، حتى الصباح الباكر كأيامهم الخوالي، بل صاروا يتمددون على المصاطب، وفوق الأسطح، وتحت الشجر، ليغفوا قليلاً في أوقات مختلفة، ويفيقوا جوعي متثابرين ليأكلوا، ويعملوا قليلاً، ثم يعاودون التمدد كلما ثقلت أجفانهم.

ليلة الجائحة: قيل إن شدة التيار تزايدت فجأة في محولات المحطة، وقيل إن ذلك لم يحدث، لكن الشائع هو أن سطوعاً غير عادي حدث لأضواء النيون، التي تغمر القرية ومحيطها من الحقول، حتى إن البوم غفا من فوره على أغصان الجميز، وفوق الأسوار، فكان يتساقط في ارتطامات صماء على الأرض، والخفافيش آبت إلى أسقف الخرابات، وحناياها، ولطت بها كأنها طلقات لرجة تلتصق بأهدافها. تزايد طنين النحل، وعلت صوصاة العصفير التي اضطرب تحليقها، وتصاعدت جلبة غير معهودة في عشش الدجاج، وأبراج الحمام، وضجت الزرائب.

في الدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل: ضربات هائلة مكتومة أخذت تُطير أبواب الزرائب، وتبقر حيطانها الطينية، وانطلقت من الأبواب المنهارة، وفجوات الحيطان جواميس القرية، كل الجواميس، كأن شيطاناً ناداها جميعاً في لحظة واحدة، وراحت تنخرط في قطع متلاطم، يندفع بجنون أعمى في شارع «داير الناحية» الذي يخترق القرية من أقصاها إلى أقصاها، وعندما بلغ القطيع المندفع نهاية الشارع الطويل، وجد أمامه جسر المصرف الخشبي القديم، الذي سرعان ما انهار تحت ثقل البهائم، وشدة لطمات أظلافها.

عقب انهيار الجسر: هوت عدة جواميس في مياه المصرف، وارتج القطيع الهائج، بينما راحت صدمة التوقف المفاجئ تسري في جسم الزحام المتخبط، تمشطه من البداية حتى النهاية، وبدأت الأخطام والقرون تستدير وتشابك، فتتناطح، وتحوّل القطيع الكبير إلى شراذم قطعان ملتثة، تجري في كل اتجاه وحيثما تألق ضوء هنا أو هناك، كانت الجواميس المندفعة تصوب رؤوسها إلى كل مكان عُلق فيه أو أُلقي به مصباح نيون، وعندما كان يغُسر عليها النيل من مصباح في مكان مغلق، كانت تواصل نطح الجدران أو الأبواب أو الأسوار، بل أخذت تجوس في الأزقة وتقتحم الدور؛ بحثاً عن ذلك الضوء الأبيض المتوهج لتخمد، بقرونها، وأظلافها، وأخطامها، وأكفالهـا. كانت تضرب انبعاثات ذلك الضوء الأبيض، بكل كياناتها الثقيلة الهائجة، ثم أخذت الأضواء تتراجع فيما كانت الحرائق تشتعل، والغبار يتطاير، والبشر يصرخون، والدواجن والماشية تحاول الفرار، لكن الدهس تواصل. ولما وضح أن الغاية كانت تلك الأضواء البيضاء، سارع الناس يحطمون كل ما تطوله أياديهم وأقدامهم من مصابيح، حتى انطفأت القرية تماماً، وراحت القطعان تتجه نحو ما تبقى من أضواء بيضاء، تتلامع في اتساع الحقول. ■



- «نحن بيولوجيا على وجه الدقة، وليس المجاز نشبه الأرنب، حين يأكل العشب الرطب بنهم في الضوء الذي يسبق الفجر، حيث تنتشر الشبورة، ثم يمضغ وصغيره يتشممه وقد بلله الندى، وفجأة ينظر حوله بعنف». (جيفري ماسون، وسوزان مكارثي – حين تبكي الأفيال)
- والأرانب تنام مفتوحة العين فرما جاءها القناص، فوجدها كذلك فيظنها مستيقظة، ويقال إنها إذا رأت البحر ماتت. (الدميري – حياة الحيوان الكبرى)

أرانب مسحورة

لم أستطع الانتظار عندما تنامي إلى سمعي ما يحكونه عن الظهور الليلي، لتلك الأرانب في ميدان مدينتنا القديم، بعد أن احترق محول الكهرباء الرئيسي، وحل على الميدان وما حوله ظلام دامس، رجحوا أن يستمر لعدة أيام حتى يتم إصلاح المحول. ركبت آخر القطارات السريعة المتجهة إلى المدينة، لأكون هناك عند حلول الليل، إذ قيل إن تلك الأرانب تبدأ عرضها الغريب بعد منتصف الليل، وتختفي تمامًا مع ضياء الفجر.. عشرات، مئات، ويبالغ بعضهم فيزعم أنها آلاف الأرانب البيضاء، بياضًا ناصعًا، تندفق تحت جناح الظلام في الميدان القديم الواسع، عندما يخلو من البشر. تنبع من مكان مجهول وتنتشر في الميدان بلا صوت، تتحرك بانسياب فيما رؤوسها تهتز بنمنمة، وأذناها الطويلة تتأرجح ببطء، وأفواهها لا تكف عن قضم عشب غير مرئي، وكأن أسفلت الميدان المترب قد تحول إلى مرعى شاسع غزير العشب!

منذ ستة وعشرين عاما ساقطني الأقدار، وبراءة العمر، لأكون المتهم الأول في أحداث أول العام التي وقعت بالمدينة، وجَّهت إليَّ النيابة تهمة التحريض على الأحداث، وما ترتب عليها من تخريب وتهديد لأمن الدولة، وموت اثنين من المواطنين برصاص مجهول، وكانت العقوبة التي طلبتها النيابة لي هي الأشغال الشاقة المؤبدة، استمرت القضية سبعة أشهر كاملة، قضيتها في سجن المدينة، مع ثلاثة من الطلاب الذين لم يُفرج عنهم من بين مائة وخمسين، تم القبض عليهم في أثناء الأحداث. لم يكن تكريمي بهذا الموقع الفادح لدور بارز قمت به، بل كان اقتناصا سياسيا من السلطات، لشاب كان يتعامل مع السياسة بروح فني، قال ما أعتقد إنه الأصدق والأجمل، سمَّى أشياء بأسمائها الخطرة، وأشار إلى رؤوس كبيرة وثقيلة، ولم يتراجع قط عن التهور الذي احتشد له عشرون من أفضل المحامين السياسيين المتطوعين، ليحصلوا له على براءة قانونية، صحيح أن جهود المحامين المخلصة أثبتت جدواها، ورتبت الأقدار قاضيا زكي القلب، لتكون هذه آخر قضية ينظر فيها قبل خروجه إلى المعاش، حكم بالبراءة كاملة غير منقوصة، إلا أن هذه البراءة كان يمكن الحصول عليها بجهد أقل من ذلك كله، لو أنني وجهت أنظار القاضي والمحامين إلى حادثة تثبت عكس ما اتهمتني به النيابة، من تحريض على التخريب والفوضى، وهي حادثة كان يمكن تأكيدها ببعض الشهود الذين عاصروا الحظاتها وهم: بستانى عجوز من العاملين في قصر المحافظ، واثنان من الطلاب أصدقائي.

قبل اندلاع أحداث أول العام بعدة أسابيع، كنت أمارس إحدى هوايات ذلك العمر «الرومانتيكية» تحت المطر، ففي الركن الهادئ - آنذاك - من أركان المدينة التي كانت جميلة، كنت أتمشي بلا هدف في الشوارع الخالية المغسولة، أتطلع بعيون حاملة نحو الشرفات والنوافذ، وأحلم بحب جديد بعد حب ضيعته لتوِّي، وقرب الغروب، بعد أن أكمل مطر المدينة الخفيف دوره الساحر، وحول

زرقة السماء وبياض البيوت البديعة تحتها إلى حلم، كنت أمر أمام قصر المحافظ الذي تحيط به أسوار ذات قواعد خرسانية، تعلوها قضبان حديدية ذات قمم مسننة، تظاهرها ألواح محكمة من زجاج مصنفر، وفوجئت بأرنب أبيض ناصع البياض، يعدو مفلتا من شق بوابة القصر التي كانت مواربة، وتلاحق الأرنب فتاة لم أر أروع منها في حياتي كلها، ثم برز بعض عساكر الحراسة يطاردون الأرنب الذي تلاحقه الجميلة، انشغلت البقعة التي كنت أتمشي فيها بهذه المطاردة التي وجدني في قلبها، ثم لم أعد أري غير الفتاة والأرنب، واختفى العساكر، كأنهم لم يكونوا هناك قط. كان طبعيا أن أمسك أنا بالأرنب الذي رحت أطارده بطاقة كل خلية في جسدي المنتفض، وأمسكته بالفعل، حاصرته بين سور القصر والرصيف، وانكبت عليه بوجدودي كله، ففاجأني باستسلامه وسكونه، كنت حريصا على ألا يفلت مني وأنا أرفعه من مكان قبوعه بين الرصيف والسور، وبدا كأنه يشاركني هذا الحرص؛ إذ بدلا من التفلت بين يدي، أخذ يعتدل لأجيد الإمساك به، هداً تماماً بين صدري وساعدي اللذين أحاطاه بإحكام ورفق، ورحت أقرب - وهو في حضني - من الفتاة التي أخذت تقترب مبتسمة ممتنة، كانت لحظة ابتسامتها، ووثارة الفراء الأبيض الناعم الدفئ في حضني لحظة مسحورة من لحظات العمر الجميل، ثم بدأت أتبين اقتراب العساكر وهم يمدون أياديهم لأخذ الأرنب، لكنها أبعدتهم وطلبت مني أوصل حملي، حتى أعيده إلي مكانه، وانصاعوا لأوامرها الهادئة القاطعة.

هكذا دخلت قصر المحافظ للمرة الأولى، في حضني أرنب دفئ ناصع البياض، ناعم ووثير، وقلبي ينتفض من البهجة والوجل، تقودني جميلة كالحلم، ويحرق بي عساكر يكتبون غضبهم، وتبعث شرارات عيونهم الضيقة بتهديدات خفية، إن تجاوزت ما لا يعرفون حدوده. قادتني الفتاة إلى ركن من حديقة القصر الخلفية المظلة على النهر، وهناك رأيت الأقفاص السلوكية متعددة الطوابق، التي تسكن في غرفها عشرات الأرناب البيضاء الناصعة، كالأرنب الذي أحمل.

فتحت الجميلة باباً سلكيا صغيرا في طابق يوازي صدري، وأومات لي بالاقتراب لأودع أرنبى في مسكنه، سكبتُ الأرنب برفق عبر الباب السلكي الصغير الذي كانت أناملها تفتحه، وكنت أقرب من وجهها الحلو لتسكنني أنقى بشرة مسستها مساً كأنما من بعيد، بعيد. كادت ساقاي تنهاران تحتي لولا نذير العساكر، وأغلقت الأنامل الصافية باب الحجرة السلكية على الأرنب، الذي غادر صدري. شكرتني بابتسامة عذبة أحسستها تواعدني أكثر مما تودعني، لكن نفقا من العساكر انفتح أمامي، مُحددا طريق خروجي، ووجدتني خارج بوابة القصر التي أوصدت، أمضي مترنحا كمن يفتح عينيه بعد حلم، خفيفا توشك أن تطيرني النسائم، عازما على العودة لاستكمال حلمي، ولقد عدت، عدت مرات ومرات، أحوم حول سور القصر المدجج بالحديد، والمخفي بالزجاج المصنفر دون يأس، ودون جدوى، إلى أن دخلت القصر من جديد، ولم يكن فيه غير تلك الأرانب!

اندلعت مظاهرات مدينتنا في اليوم التالي لاشتعال المظاهرات في العاصمة، ففي يوم الثلاثاء وصلت أنباء العاصمة إلى المدينة مساءً، وفي الصباح التالي كانت الشعارات، التي شاركت في كتابتها ليلا، تملأ حيطان المدينة مطالبة بالحرية والعدل، وعند الضحى خرجت مظاهرات الطلبة من الجامعة، وانضم إليها سكان المناطق الشعبية، وعبر المناوشات والحواجز شقت سيول المتظاهرين طريقها في شارع الكورنيش متجهة إلى مبنى المحافظة، كانت الأعداد تتضاعف بعشرات ومئات الآلاف، وفي الظهيرة صار هناك أخطبوط هادر من نصف مليون متظاهر، يملأون الشوارع المؤدية إلى مبنى المحافظة من كل الجهات، ولسبب غامض في حركة الجموع التلقائية، التي تجاوزت قيادة الطلبة، تركز ضغط الحشود على قصر المحافظ، وكنت أنا هناك، مضطربا، خافق الفؤاد، روعي مع انتفاضة الناس في الشارع، وقلبي وراء سور الخراسانة

والحديد والزجاج المصنفر، وانفلت غضب عوام الناس وبؤسائهم.. في لحظات تساقط بلور القناديل التي تعتلي أسوار القصر، وفي لحظات تطاير كل الزجاج الحاجب للرؤية عن الأسوار، وانكشف القصر عبر الشارع.. لم يعد هناك أثر للعساكر الذين رأيتهم من قبل، وكانت ستائر الدانتيل تتأرجح وراء زجاج النوافذ، كاشفة عن حركة محمومة في الداخل، وظهر بعض الرجال في ثياب مدنية، يهرولون باتجاه الحديقة المطلة على النهر. انتفضت لخاطر مريع صقع ذهني، ونقلت الخاطر إلى بعض من كانوا بقربي من زملائي قادة الطلبة: «ستتلخ هذه الانتفاضة كلها بالعار لو حدث أي اعتداء على أنثى داخل القصر، وستكون الاعتقالات دموية، ومبررة، حتى من قبل من أبدوا تعاطفهم مع الانتفاضة حتى الآن». كان الصخب هادراً، ومن الصعوبة أن نتمكن من سماع بعضنا بعضاً، وعبر احتقان الوجوه العرقة المنتشية باكتشاف لذة الاحتجاج، لم أظفر إلا بسمع صديقين.. شققنا ثلاثتنا حشود المتظاهرين المتضاغطين أمام البوابة، وناديننا بعض المهرولين من عمال القصر، الذين لاحوا لنا وراء قضبان السياج، عرفنا من إيماءاتهم أن ساكني القصر غادروه، وانهالت علينا من كتلة البشر أصوات تؤكد أن المحافظ قد هرب، وتم تهريب أسرته في زورق عبر النهر إلى مكان مجهول.

ضاع مني صديقا في حراك الآلاف الذي يشبه طاحونة أسطورية، تبدو متوقفة لكنها تدور، تدور ببطء كاسح، ووجدت نفسي أمام بوابة القصر مباشرة، وورائي منجنيق بشري هائل، قوامه مئات الآلاف من البشر، يتراجعون بطيئاً على نفس واحد صائحين: «هيلاً»، ثم يتقدمون في كتلة واحدة ساحقة تصيح: «هووب» ويلطمون البوابة التي تكبل مصراعيها سلسلة ثقيلة من الفولاذ، يغلقها قفل نحاسي ضخمة.. رأيت حلقة أحد طرفي السلسلة الملبسة في لسان القفل تنفتح، ويتزايد انفتاحها مع كل لطمة من المنجنيق البشري الهادر، تصك اللطمات مصراعي البوابة المصفحة، وتسحق أضلعي على حديد هذه البوابة. بدا القصر خالياً تماماً وراء قضبان البوابة الحديدية، التي توشك على الانفجار.

لكن وفاضي لم يكن خالياً، فقد كان لي حلم هناك، على مرأى من عيون الأرانب البيضاء ورقرة النهر الذي يحف بحديقة القصر.. صحيح أن المحافظ لم يعد موجوداً، وأسرته انتقلت في زورق إلى مكان آمن، لكن من يدريني إذا ما كانت فتاة حلمي من هذه الأسرة أم لا؟ لعلها كانت على الرغم من حسنها وجمال ثيابها، مجرد موظفة تعمل بالقصر، فتاة تشريفات ممن يتم انتقاؤهن بعناية، ليلقن بالظهور أمام ضيوف القصر، الذي يحل به الرؤساء والملوك إن زاروا المدينة، فهو أحد قصور ضيافة الدولة، ومن يدريني أنها ليست هناك، مختبئة من شدة الرعب في أحد أركان القصر البعيدة، التي لا يُستبعد وصول حوشي أهوج إليها؟ تلبستني روح البطولة والشهادة اللتين هما وجهان لغاية واحدة، وقررت أن أقوم الانهيار السريع لبوابة القصر، حتى أتأكد أكثر من مغادرة فتاة حلمي له، أعدت لف السلسلة على نفسها في نوبة جزر المنجنيق المرعب، قبيل معاودته للمد المريع، والطرق الصاعق، وباغتني المد وأنا أوشك على إتمام عملي، فجزّت السلسلة قطعة من لحم سبابتي اليمنى، ما زال أثرها باقياً حتى الآن، صرّت البوابة وقرّعت ودارت السلسلة على نفسها بسرعة، فرقعت حلقتا طرفي السلسلة، وطار القفل الثقيل في الهواء مثل ريشة، ثم انفجرت البوابة فاتحة مصراعها لسيل المهاجمين الهادر، وكنت في المقدمة أغالب الطوفان، وأنا أدور حول نفسي وأصرخ: «لا اعتداء على النساء.. لا اعتداء على النساء»، لكنني وصرّخي غمّرنا الطوفان، ووجدت يداً طيبة تشدني بعيداً عن مجرى السيل، كان رجلاً مسناً، أحد بستاني القصر، قال لي: «لم يعد في المكان أحداً يا بني.. لا نساء ولا رجال». أوليت وجهه العجوز الطيب نظرة خاطفة، وأدركت أنه لم يهرب كالآخرين؛ لثقته بأن هيئته وعمره لن يغريا حتى الشيطان بالاعتداء عليه، عدوت كالمجنون ملاطماً زحام المهاجمين، أصعد درجا وأعبر غرفاً وأركض في أبهاء باذخة، مهجورة إلا من حُمى البؤساء، الذين انتشروا في كل الأماكن كالجراد، وأهبط مواصلاً ركضي، فأجد نفسي في الحديقة المطلة على النهر، وهناك كانت الأقفاس السلكية متعددة الطوابق حيث الأرانب البيضاء ومئات الأيدي تمتد

إليها، تتحطم الأقفاص، وتنطلق هاربة عشرات الأرانب، التي احتضنت إحداها يوماً، في حلم كالحلم!

خرجت من بوابة القصر أتابع ما يحدث من الخارج، مستشعراً إهانة البقاء داخله، كان العرض كامل الانكشاف من الشارع، بعد تهشيم زجاج السور، وطيران مصاريع نوافذ القصر، التي راحت تتوالى عبرها المشاهد الجنونية: من يقفز متعلقاً بإحدى الثريات الضخمة، ويسقط بها فنسمع رشاشاً من صوت تحطم الكريستال على الرخام، ويظل هذا الصوت يتكرر دون أن نرى المنظر في الداخل.. أحدهم يشد ستائر الدانتيل لينتزعها، ويشعل أطرافها، ثم يدليها مشتعلة من النوافذ، قطع الأثاث الثمينة تُرمى إلى الخارج، فتهدوي متحطمة في الأسفل، وثمة من يمسك بأنبوبة غاز يهيم بإشعالها، نسوة وغيال يعرضون على الجماهير الصاخبة - بمرح وحشي وتخلع ساخر - ملابس نسائية على شموعات وبذلات رجالية مختلفة الألوان، ومن داخل القصر الذي بدأ يحترق أسرع بالخروج حاملو حقائب السامسونائيت، والمفروشات الثمينة، والسجاد، وأطقم السفرة الفضية، وأطباق وفناجين البورسلين، وفازات الكريستال والمرمر.. كانت وجوههم طافحة بالنشوة، وكانت الجماهير تغمرهم بالتصفيق، وهم يعرضون على الملاء ما ظفروا به من الهجوم على القصر، والغريب أن أكثرهم كان يشرع في إتلاف ما بين يديه بالدوس، أو التمزيق، أو التحطيم، فيما يعلو الصفير المستحسن، والتصفيق الحار.

ودون مشاهد هذا السيرك الجنوني جميعاً، وجدتني مشدوداً إلى ما يحدث للأرانب؛ فالحيوانات الجفولة المسكينة بعد أن خرجت من أقفاصها أصابها الرعب، فمجرد إنسان واحد يفزعها، فما بال فزعها من آلاف البشر الهائجين المائجين من حولها.. طاشت الأرانب تركض متفلتة بين غابة الأقدام والأيدي، وراحت هتافات المرح والضحك من ركضها اليائس تضاعف رعبها، حتى شلها

الرعب، كانت الأرانب تستسلم للأأيادي التي أخذت تتلقفها، وترفعها عالياً فوق الرؤوس، مع فخذات اللحوم المتنوعة، وأكياس الدجاج والأسماك التي انتزعت من ثلاجات ومجمدات مطابخ القصر، تدوي الهتافات التي تقارن جوع «الجماهير» بتخمة «السادة»، وتلقت رؤوس الأرانب، وتطرف عيونها باستغراب ورعب، وهي تطفو فوق بحر الجماهير الصارخة، وبعد أن أدت الأرانب دورها بين أيدي قادة الهتافات، تم إنزالها لتخطفها أيادي النسوة، اللاتي انضممن إلى التظاهرات من الأحياء الشعبية الفقيرة، كن يحلمن بأكلة ملوخية بالأرانب، كتلك التي وضع أن المحافظ يدمنها!

السلطات التي تبخرت في النهار أعادت التكاثف في برودة المساء، بعد أن خلت الشوارع من حشود المتظاهرين، جمعت قواها، وارتدت ثيابها الرسمية، وأخرجت عرباتها الزيتية المدججة بالسلاح والعصي، والضباط الذين استعادوا هيبتهم، نشرت مخبريها، وبدأت الاعتقالات بعد منتصف الليل. كان اعتقالي محتملاً لكنه لم يكن أكيداً، لأنني لم أكن من قادة التظاهرات، الذين رفعتهم الجماهير فوق الأكتاف؛ ليهتفوا ويردد الآلاف هتافتهم، كنت معارضا نعم، لكن دوري لم يتعد الكتابة في مجلات الحائط داخل الجامعة، والحديث في المؤتمرات الطلابية، أما في المظاهرات فكنت مجرد فرد بين الحشود، أخجل من مجرد الصياح عالياً مع الهاتفين.

مكثت في البيت حتى الثانية بعد منتصف الليل دون أن يواتيني النوم، كانت أضلعي التي انسحقت على فولاذ بوابة القصر في النهار، تستيقظ آلامها ضارية في الليل، تناولت أقراصاً مسكنة قوية، وما إن بدأ أثر المسكن يظهر، حتى أتى من يخبرني بأن هناك حملة مظاهرات تجري في الأحياء الشعبية المحيطة بالميدان القديم، أدهشني الخبر، لأن ذلك كان يعني أن يقبضوا على الآلاف، لكن الآتي بالخبر استطرد مبيناً أنهم يقبضون فقط على من يجدون في بيته أرباباً

من أرناب المحافظ؛ لإثبات عمليات السلب والنهب، لعلهم أرادوا أن يضيفوا شقا جنائيا للقضية التي يريدون إخراجها من إطارها السياسي، لتتلطخ بجرائم التخريب والسرقة، شعرت بالانتعاش مع سكون آلام صدري، وبدلا من الخلود للنوم بعد مشقة النهار الفاتت، وجدتني أرتدي ثيابي وأدخل في شجار مع أبي وأمي، اللذين حاولا استبقائي في البيت؛ خوفا عليّ من الخروج في هذا الوقت من ساعات حظر التجول، التي أعلن عنها في الراديو والتلفزيون في نشرات المساء، لكنني خرجت، وقادتني قدماي المسرعان إلى الميدان القديم، كنت أتصور أنني سأقع في ركن من أركانه؛ لأراقب تلك المdahمات المسكونة بالمفارقة، محاذرا أن أحتك بالمخبرين والضباط، الذين انتشروا في المكان، والذين كانوا مفوضين للقبض على أي إنسان لمجرد الاشتباه، لكن القبوع لعدة دقائق في أحد أركان الميدان المتوارية، ومشاهدة ملامح الاضطراب والهرج بين المخبرين والجنود، وبعض الأهالي الذين تجمعوا هنا وهناك، عند فوهات الشوارع المفضية إلى الميدان، كل هذا جعلني أخرج من مخبئي وأقترب مما كان يحدث.

ثمة مطر غزير هطل ثم توقف بعد دقائق، تاركا أرض الميدان تلمع بالبلل، والمصاييح تحوطها هالات من الضباب، ثم كانت الأرناب تظهر بيضاء مرتابة، خارجة من الشوارع، وسرعان ما تردها للدخول في الشوارع من جديد ضربات خيزرانات المخبرين، وتهويشات عصي جنود الأمن، والطرقات على كعوب البنادق، وصيحات الضباط الحانقة.. كان المطلوب أن تكون الأرناب داخل البيوت؛ لضبط أصحابها متلبسين بالجرم، وبعد القبض على اثنين من المواطنين بهذه الطريقة طارت التحذيرات فوق الأسطح، وعبر الحيطان الهشة المكونة من السدة والصفيح والطوب العاري، تنبّه إلى ضرورة الإسراع في إخراج الأرناب وإبعادها عن البيوت، بدأت المعركة في صمت وحذر من جانب الأهالي، وخشونة واندفاع من جانب فرق الأمن، هؤلاء يزلقون الأرناب خارج فتحات أبوابهم المواربة، ويهشونها بهمس لتبتعد، وأولئك يقفون في وجهها، ويدفعونها

إلى الخلف بعصيتهم، وكعوب بنادقهم، وركلات الأحذية الثقيلة، ثم تحول النزال إلى تحدٍّ مكشوف من قبل الأهالي، أطلقوا عيالهم لإبعاد الأرانب عن بيوتهم، ومن يلوم العيال؟! ثم دعموا جهود عيالهم بإصدار ضجيج هائل يُفزع الأرانب، ليخرجها كلية من الشوارع باتجاه الميدان، صفير، وطرق على الأبواب، والصفائح، وقرع للأواني بأغظيتها، ودق للهاونات النحاسية، صيحات مدوية، وصراخ، بل كانت هناك زغاريد تنطلق من أجواف تلك البيوت البائسة!

هرج عظيم اشتعل في المنطقة، وظل متوهجاً حتى الفجر، دون أن تتمكن قوات الأمن من إعادة أرنب واحد إلى داخل البيت الذي كان فيه، واتخذت محاولات رد الأرانب إلى داخل الشوارع والبيوت طابعاً وحشياً من قبل الأمن.. راحت تهويشات العصي الثقيلة، وطرقات كعوب البنادق على الأسفلت، وركلات أحذية البيادة، تتوجه كلها لإصابة رؤوس الأرانب وأجسامها بشكل مباشر، أخذ الدم يظهر على الرؤوس الصغيرة، والآذان الطويلة المتأرجحة، والفراء الأبيض.. في البدء كنت أراقب ما يحدث بعيون تسخر من وقائع المسخرة، ومع بدء تلطيخ الدماء للبياض الناصع الذي ضمته إلى صدري في يوم رهيف بدأت أسخن، وكدت أوقع نفسي بين أيادي قوات الأمن في تلك الليلة، لكن عنصراً غامضاً تدخل مغيراً المشهد تغييراً مفاجئاً، أسكتني، وأسكت الهرج، والضوضاء، وضربات العصي، وكعوب البنادق، والأحذية الثقيلة، والزغاريد والصيحات وجمّد كل الفرقاء في أماكنهم، لقد ظهر نور الفجر، كأنما بغتة، وضاعفته مرايا الميدان والشوارع المبلولة، فكان في قوة نور الصباح، وفي هذا النور اكتشف الجميع اختفاء الأرانب!

ظن الضباط والمخبرون أنها تسللت إلى البيوت خفية، لكن تفتيشاً عدوانياً دقيقاً وشاملاً استمر حتى ظهيرة اليوم التالي لم يسفر عن شيء، واكتفى الأمن بالقبض على من وجدوا بين أوانيهم حلة ملوخة بالأرانب، أو حتى بدونها! أما أنا، فقد انصرفت مع الشروق دائخاً من قلة النوم وكثافة التدايعات، لم أرجع إلى

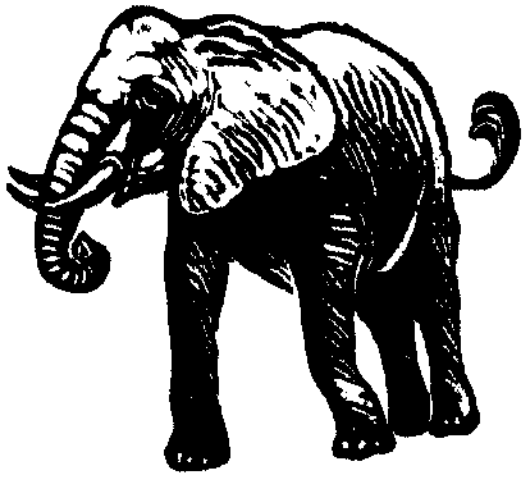
بيتنا حذر الاعتقال، بل تواريت في بيت أقارب لي، وقُبض عليّ بعد ذلك بيومين، وأنا أوزع منشورات تطالب بالإفراج عن زملائي من الطلبة الذي اعتُقلوا.

سنة وعشرون عاما مضت، وأعود إلى ليل المكان ذاته، الميدان القديم، في ظلمة أحلك من ظلمة تلك الليلة البعيدة، أنتظر ظهوراً غريباً لأرانب بيضاء تتجلى في هذا السواد السابغ، عشرات من الناس تجمعوا في أركان الميدان المواربة ينتظرون الأعجوبة، وعشرات مثلهم كنت أستطيع لمح رؤوسهم في الشرفات والنوافذ المطلّة على الميدان، يتطلعون إلى الظلمة، لقد عرفت بعض التفاصيل عن تلك الأرانب، التي ارتبطت بجزء ملون من عمري العزيز البعيد، فهي من نوع «البوسكات»، تتميز إضافة إلى فرائها الأبيض الناصع الناعم الغزير، بنمو متسارع يجعلها في حجم حملان صغيرة، وهي في عمر شهور قليلة، عيونها ذات أحداق قرنفلية، وحركتها المتأنية مرنة، تبدو أقرب إلى التساخب على الرغم من أنها عند الضرورة تقفز قفزات واسعة عالية، وتجري بسرعة كبيرة لمسافات محدودة، كان عددها في «بطاريات» الأرانب بالقصر ٩٨ أرنباً، عُثر على ثلاثة منها ميتة في حديقة القصر، وثلاثة غيرها ميتة في شوارع منطقة الميدان القديم، وتم ضبط أربعة منها مطبوخة في أربعة بيوت فقيرة، اثنان منها مع الملوخية واثنان بدونها، وُضبطت امرأتان تمران بائنين منها أمام مركز شرطة القسم الثاني عصر يوم المظاهرات، ولم تسفر حملة مدامات ليلة الأربعاء إلا عن أرنيين في بيتين تم القبض على كل ساكنيهما حتى الأطفال منهم.

أما الأرانب المتبقية وعددها ٨٤ فالأرجح أن معظمها كان في موقعة الميدان، التي انتهت بذلك الاختفاء الغامض عند الفجر، لقد قيل الكثير في تفسير سر اختفاء تلك الأرانب يومها، ابتداء من أنها وجدت شقوقاً بين جدران البيوت المتداعية، وغاصت فيها، مروراً بأنها تساقطت في بالوعة صرف مفتوحة، أو أسقطت نفسها عمداً؛ لتهرب من البشر، سواء هؤلاء الذين كانوا يطحنون

عظامها بعصيتهم، وكعوب بنادقهم، وأحذيتهم العسكرية الثقيلة، أو أولئك الذين جعلهم الجوع المزمن يتنمرون ويتعجلون سلخها، وهي حية والتهامها قبل أن تنضج. ثم كانت هناك تلك التفسيرات الخارقة التي تضيف طابعاً سحرياً على هذه الأرناب، ولغز اختفائها الغامض.. وها هي ذي ست وعشرون سنة تمر، ولا يزال اللغز لغزاً. تغير الميدان تغيراً وحشياً، تكاثرت على محيطه الأبراج السكنية والإدارية، حوشية الهياكل والألوان، وظل ما وراء هذه الأبراج يكشف عن أن شيئاً لم يتغير، بل تفاقم، فالبيوت البائسة لا تزال بقاياها في أماكنها وإن تردت أكثر، وما أزيح منها عاد يتجمع عند الأطراف البعيدة، في شكل عُشش من القش وبيوت من الطين والصفائح، يسكنها من يخبئون في جوعهم المزمن استعداداً لسلخ أي أرناب وهي حية، وأكلها ولو نيئة.. ستة وعشرون عاماً لم تكف لحل لغز كائنات بسيطة، ونزال دميم، لم يُحسم، فهل أجد في عمق هذه الليلة حلاً للغز الذي عاش معي، ومع المدينة التي كانت جميلة، كل هذا العمر؟!!

أتت الساعة الثالثة الحالكة بثاقل هامد، كان أسفلت الميدان مبلولاً بأثر مطر عجول كما في هذا الوقت من السنة، ولم تكن مرايا الميدان المبلول تلمع؛ لأن الظلمة بدت كاملة وشاملة؛ فلا قمر في السماء، ولا نجوم يرتعش ضوءها في الصفاء المفتقد، كنت أنتظر الأرناب، وغيري كثيرون ينتظرون، وخلصة، خلصة وبلا مباغثة، رأيت، أو أظنني رأيت، قطعاً من ظلال بيضاء تنساب صامتة في دائرة الميدان السوداء، تحت أقدام البيوت والعمائر العالية، تتكاثر وتتلاصق، حتى يبدو سواد الميدان وقد ترقط ببياضها الخفيف المتقلب، وهي تدور وتمور وإن في ونى وهمود، ثقل قلبي في صدري، وكنت أسائل نفسي متحيراً عن حقيقة ما أراه. ■



● والفيلة هولها في العين واحد؛ فاحذر أن تتخذ ظهورها كالمناظر والمسالح والأرصاد. وللفيل قتال وضرب وخبط بقوائمه، وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرجل بوطء الفيلة قد دربت على ذلك. (الجاحظ - كتاب الحيوان)

● الفيل خلق عجيب، ومعتبر لمن فكر، وكل شيء عجيب، فهو أبعث على التفكير من غيره. (الجاحظ - القول في البغال)

● عندما ذهب تاركين هال إلى آسام في شمال الهند، ليسجل عملية اصطيداد فيل هائج قتل أربعين إنساناً، اكتشف هال أن الفيل أسيئت معاملته طويلاً من مالكة السكير، وكان يعاني قسوة أصفاد حديدية ثقيلة، وصدئة غاصت بعض حلقاتها في لحم إحدى ساقيه. (الصحة البرية - باب الأمراض النفسية - سيندي أنجل)

على ظهر فيل

مثل الرعب الذي عانيته على ظهر ذلك الفيل الصاعد إلى قلعة «جايبور» لم أعرف قط، على الرغم من أن حياتي بها الكثير من لحظات الرعب التي اكتنفت أسفاري، بدءاً من رحلات الصبا المتصعلكة على ظهور القطارات حيث يختبئ المسافرون الفقراء لحد الإدقاع، واللصوص، والمتشردون، وأسلاك الكهرباء التي يمكن أن تقطع رقاب من لا ينتبه إليها، والجسور التي تظهر فجأة فوق الرؤوس، وتوشك على تحطيمها، إذا لم ينبطح «المسطحون» متمددين على بطونهم في اللحظة المناسبة، وبعد صعلكة الصبا جاءت أسفار السيارات المضضعة، والحافلات المتهالكة التي سارت بي على حواف جروف جبال

البحر الأحمر، ومهاوي جبال لبنان والفوالق المميتة في هضبة التبت، لقد مررت فوق قمم جبال لاوس في طائرة روسية عتيقة تحترق، واجتزت فوران نهر الرامبيزي، وانعطافاته، وانحداراته الخطرة في زورق «كانوي» متآكل، لم يكف عن الطفو والغرق طوال الرحلة، وأنا لا أعرف السباحة. عبرت مناطق الألغام التي يسمونها «حقول القتل» في كمبوديا مشياً على الأقدام، وطففت في حوامة فوق مساقط المياه السحيقة لشلالات فيكتوريا، ومارست باحتراف رياضة الجمباز لسبع سنوات كاملة بهدف نهائي واحد، هو أن أتحول إلى لاعب «ترايبز» في السيرك، يواجه الموت في كل قفزة على العقلة الطائرة، من أجل تحقيق دورة خلفية واحدة حول نفسي في الهواء، «باك ثمرثولت»، أو دورتين.

إنني مولع بالرعب لأسباب أخرى، غير تلك التي يضعها النفسانيون في إطار الأفعال التعويضية؛ لأنني ببساطة تذوقت في مواجهة الرعب ألواناً من اللذة والنشوة لا يمكن لمن جربها إلا أن يطلبها مرات ومرات.. أحاسيس جسدية مجتاحة تُفتح مسام وجودك العادي على آفاق خافية من الوجود، بهرة الضوء الذي تتوسع له الحداقات، وقشعريرة الجلد الذي تهرب منه الدماء، وخفقان القلب المثير، والسخونة الحارة التي تندفع عبر عمودك الفقاري إلى صميم يافوخك.. ذلك التأهب الخارق الذي ينتفض في أطرافك الأربعة ويمر به الجسد كله، (شعور بذروة اللياقة مع ذروة الرعب، إنها نشوة «الأدرينالين»)، كما يقول بحث علمي أجري على رواد رياضات المخاطرة، مثل القافزين بمظلات مغلقة من الطائرات، ومتسلقي الجبال، ومُجذّفي قوارب «الرافتنج»، في الأنهار الصخابة والشلالات، والماشين على السلك المشدود بين ناطحات السحاب، أو المتسلقين على واجهات هذه الناطحات حتى قممها.

لأجل هذه النشوة، ولتكن نشوة الأدرينالين كما يقولون، ألقىت بنفسي كثيراً في أفواه الخطر، وكنت أختار الوسائل الأقل أماناً بدلاً مما هو آمن ومريح،

لأنّ تشي، فأند هـش، وتكون رحلاتي وسفراتي أمتع، ولا يمكن نسيانها؛ فغالبًا ما تكون الوسائل البدائية وغير الآمنة هي الأكثر نجاحًا في الوصول إلى البكر، والنائي، والمخفي عن العيون. بهذا المنطق فضلت أن أصعد إلى قلعة «جايبور» على ظهر فيل، لا سيارة أو ميكرو باص من تلك المجهزة بإطارات خاصة، والتي كانت تصعد إلى القلعة على الطريق حادة الارتفاع، الضيقة والخرجة، والمطلّة مباشرة على مسقط مخيف بارتفاع خمسمائة متر، ينتهي بحوض بحيرة جافة، تحتشد فيها الصخور والأحجار قاتلة الأطراف والحواف، ثم إن الصعود على ظهر الفيل كان ينشط المخيلة؛ لاستعادة صور وأحاسيس المهرجات الذين شيدوا القلعة فوق هذا المنحدر، وسكنوها جيلًا بعد جيل، قبل أن يتلاشوا وتحول القلعة العالية الهائلة إلى مزار، وأعجوبة.

كنت أعرف أن ركوب الفيل ليس تجربة جميلة بكاملها، صحيح أن الإطلال على الدنيا من فوق ظهر متحرك بهذه الضخامة، وذاك الارتفاع، خبرة بديعة الإثارة، لكنها معجونة أيضًا بآلام جسدية لا قبل بها إلا لمعتادي ركوب الأفيال، من الآسيويين مرني وضئيلي الأجساد، والذين تنم عن مرونة أجسادهم تلك الجلود الملساء والمفاصل الدقيقة، فالفيل ليس جملاً يؤرجح راكبه إلى الأمام والخلف، بما يتوافق مع الانثناء والاعتدال المتاحين للتكوين الطبيعي للجسد البشري، وليس حصانًا يبختر فارسه أو حمارًا يهزهز ممتطيه.. الفيل هضبة حية تتحرك على أربعة قوائم راسخة، تنتقل بتؤدة ثقيلة وفي تبادل داهم.. قدم أمامية اليمنى ترتفع، مع قدم خلفية يسرى لطبع خطوة جبارة على الأرض، ثم قدم أمامية يسرى مع قدم خلفية اليمنى في خطوة جبارة تالية، ومع كل خطوة جبارة، يحدث انزياح أليم للأجساد البشرية المتشبثة بمواقعها على الظهر العملاق. مصدر الألم هو هذا الانزياح، الذي يكون في محور مائل مديد، غير مناسب لاستجابات الجسد البشري العادي، الذي لم يألّف ركوب الأفيال منذ الصغر. خطوات

راسخة، واسعة، ثقيلة، تجعل أجزاء مفاصل الراكبين تطحن بعضها بعضاً كأحجار الرحي.. أجزاء العمود الفقاري خاصة، ثم عظام الحوض، والترقوة، ومفاصل الكتفين. تجربة موجعة خضتها من قبل في جزيرة تتوسط نهر الميكونج قرب «فتيان»، وفي مجمع تراثي بيانكوك، لكنني لم أتورع عن تكرارها في جايبور، متوقفاً الألم، لكنني لم أكن أتوقع الرعب.

في السفح المنخفض الذي يبدأ منه الطريق الصاعد إلى القلعة، كان «موقف» الأفيال، وهي تتوالى إلى جوار سور بارتفاع طابق واحد، يمثل منصة بشرفات مفتوحة، تُفضي إلى ظهورها العالية. كانت الأفيال ملونة برسوم لأغصان وزهور تحيط بأعينها وتفرش جباهها، ممتدة إلى خراطيمها الطويلة، وكانت السروج على ظهورها، حيث يجلس الركاب، تشبه أسرة من الحديد المشغول، متسعة ومفروشة بمرتبة كبيرة، ووسائد تبطن «درازين» الحديد المشغول، الذي يسبحها، بارتفاع يقارب القدم لحماية الركاب من احتمالات السقوط، وكانت تلك الأسرة مثبتة في استواء أفقي بواسطة أحزمة من جلد عريض وثخين، رجحت أنه لا يمكن أن يكون إلا من جلد فيل حول البطون العظيمة الجعدة، التي بلون الجرافيت.

صعدت مع الصاعدين على درج حجري، يؤدي إلى أعلى السور، حيث الشرفات التي تنتقل منها إلى الأسرة فوق ظهور الأفيال، لكن حركة الصعود بدت متباطئة أكثر مما ينبغي، ولاحظت وجوداً كثيفاً لأفراد الشرطة الهندية، وتنامى إلى سمعي كلام عن أن هناك تفتيشاً دقيقاً، يجري قبل السماح بالركوب، وأن هذه الإجراءات الأمنية تأتي احترازاً بسبب الوضع في كشمير، وتداعيات الاشتباكات الطائفية في حيدر أباد، وتفجيرات قطار مومباي. قلت لا بأس، فالاحتراز واجب، والتطرف أعمى، لا يُفرّق بين قطار وفيل، وبين خصوم ومحايدين، أو بين بشر وحجر، فالمهم لدى أهل التطرف أن يفجّروا، وأن

يشخصوا أعداء لإيذائهم بهذه التفجيرات، لكنني عندما صعدت إلى أعلى السور استهجننت أن التفتيش بعد أن يشمل الحقائق والأكياس التي يحملها الزاهبون للركوب، وكذلك ثيابهم، ينتقل إلى الأصابع العارية، يمسكون بالأيادي ويرفعونها؛ لتكون في ضوء الشمس قريبة من عيونهم، ويتفقدونها أصبغاً أصبغاً، ثم يكررون ذلك مع أصابع الأقدام بعد إجبار الناس على الجلوس، وخلع أحذيتهم وجواربهم! خضعت حانقاً لهذا التفتيش، وبعد أن أخذت موضعي في ركن السرير السرج على ظهر أحد الأفيال، لم أستطع التخلص من استهجانني، الذي تحول إلى استغراب، وانشغلت عن بدء حركة الفيل في طريق الصعود بمحاولة حل لغز الأصابع...

كان على الظهر الذي نركبه عشرة أشخاص غير السائس الذي يجلس في المقدمة قرب رأس الفيل، ومن بين العشرة كان هناك أربعة شبان صغار لم يكفوا عن التغامز والتضحك، وهم ينكشون أطراف أصابعهم بعيداً عن قش صغيرة، يمدونها إلى الأمام وأسفل في ملامسة الفيل، فيلتفت إليهم السائس محدقاً إلى أطراف الأعواد، ثم يرشقهم بنظرات غاضبة، ويرغي بكلام سريع باللغة المحلية يبدو أنه شتيمة أو تهديد أو الاثنان معاً. يزدجرون للحظات، ثم يعودون إلى تكرار الضحك، والتغامز، والمعاينة. ملت متسائلاً بملامحي وإشارة من يدي على واحد من الفتيان الأربعة كان بقربي، وكانت به ظلال من الخجل والرقعة، على الرغم من مشاركته المتشاقية لزملائه الثلاثة، وبالفعل تلاشت من وجهه الأسمر الناعم ملامح الشقاوة، وبدأ خجولاً وهو يجيني بإنجليزية ذات لكنة: «آنتش». لبرهة بدت الكلمة غامضة تماماً لأنني لم أتوقعها بهذه اللكنة، ثم أضاءتها في ذهني المدهوش إشارة إضافية من أصابع الشاب، تمثل حركة دقيقة، منمنمة، متسارعة.. شهقت نابساً في استغراب وتساؤل: «نملة.. نمل»؟ فأوماً الفتى مبتسماً في خجل، ثم تواصل التهامس بيننا لأعرف أن النمل صار آخر

ابتكارات التطرف لتنفيذ عمليات ترويع في البلدان، التي تستخدم الأفيال دابة للنقل والجر وأغراض السياحة والمهرجانات.. في لاوس وكمبوديا وميانمار وتايلاند وسريلانكا ونيبال والهند. لا أحد يعرف حقيقة العملية الأولى، ولا أين جرت على وجه التحديد، لكن «التقنية» اجتاحت إنذاراتها المنطقة مثل وباء قاري، وتكاثرت الحكايات التي تروي وقائع هياجات جنونية للأفيال التي تُدسُّ في آذانها النمال، فتُجنُّ معربة ساحقة عشرات البشر تحت أقدامها الثقيلة، وتُخرب بيوتا ومحالَّ وسيارات وحدائق، بأكثر مما تستطيعه أي شحنة متفجرة في سيارة مفخخة أو كمين ملغوم...

بعد أن تجسّد لي موضوع الترويع بالنمل هذا، وقد تداخل لإكمال صورته أكثر من صوت ممن كانوا على ظهر فيلنا، رحت أفكر في أن من يحتمل قيامهم بمثل هذه العمليات لا يمكن أن يكونوا الشيء نفسه أبداً، لا أيديولوجياً، ولا دينياً، ولا عرقياً، ولا سياسياً؛ فالمعارضات والمناوآت المسلحة في هذه البلدان طيف واسع من الألوان المتنافرة، بارونات زراعة وصناعة وتجارة المخدرات في جنوب لاوس وشمال تايلاند، شيوعيون ماويون في نيبال، مافيا الياقوت في بورما، عصابات أشجار البخور في كمبوديا، وانفصاليون بمزاعم دينية وعرقية شتى، في سريلانكا، وبعض الجزر الإندونيسية، وشمال الهند، فرقتهم المشارب والمذاهب وجمع بينهم النمل للأذى. وهل يمكن أن يكون هذا غير أذى؟ وهل يمكن للأذى أن يكون وسيلة لإصلاح أي أذى؟ هل تبددت البصيرة وتكاثف العمى؟ هل هناك عيون للنار التي تُضرم في البيوت لتنتقي ضحاياها؟ هل هناك عيون لشحنة ناسفة خُبئت في صندوق قمامة، أو سيارة مفخخة، أو تحت مقعد قطار؟ وهل هناك عيون للنمل عندما يدخل في ظلمات دهاليز آذان الأفيال؟ هل يعوض عما بهش أهذاب الأعصاب بالغة الحساسية التي تعيق محاولاته للهروب، بفكوكه المدببة الدقيقة ينهش تلك الأعصاب العارية؛ فيكهرب مخ

الكائن السرمدى الضخم بصعقات تفجر جنونه، ينتفض فينفض الراكبين على ظهره؛ ليهووا إلى الأرض من شاهق، مقذوفين بغضب فيل داهمه الجنون، يهرول بثقل أطنان جسمه الهائل؛ فيسحق تحت رحي أقدامه من سقطوا عن ظهره، ومن تصادف وجودهم بقربه، يتخبط هازاً رأسه الضخم ليترد ذلك الشيء الناهش في عمق أعصابه، فيترنح ساحقاً أجنابه على الحيطان هنا وهناك، ويسحق من يتصادف لودهم بهذه الحيطان؛ ظناً أنها تنجيهم من قيامة فيل جن جنونه؟

تلبثني صور الفرع من أشكال الموت دهماً، والتي يمكن أن أكون ضحية في واحد منها من جراء احتمال هياج فيلنا، أن أسقط من فوق ظهره على حجارة الممر الصاعد نحو القلعة؛ فتنهشم عظامي، ثم تكمل فرمي قدمه، أو أقدامه الثقيلة العملاقة، أن أنجو من سقطة الظهر لكنني في اندفاع مرتبكة نحو جدار الصخور، في الجانب الأيمن، أهيب الفرصة لانسحاقى حتى العظام، بين جنب الفيل والحجر، أو أهوي بعيداً عنه وبعيداً عن صخور الطريق، وحجارة الجانب الأيمن، لكنني أواصل السقوط بعيداً في الأسفل، نحو قاع البحيرة الجافة على مبعده خمسمائة متر؛ لأتمزق على حواف وأسنان الصخور القاتلة، التي تكويها شمس «راجستان» الحارة، ويزيد فتكها عطش جفاف مديد، لم يبرح المنطقة منذ أعوام عديدة طويلة.

لم أعد أرى غير صورة موتى الدامي وأنا على ظهر الفيل. كنا قد قطعنا ثلثي الطريق حيث يتبدى الارتفاع مرعباً، وحوض البحيرة الجافة فاغر الإفزاع. وجدت نفسي معرضاً تماماً عن الاستمتاع بروعة منظر الصعود ومراقبة أبراج القلعة البيضاء الدانية، ووضاءة السهل الأشهب الفسيح تحت سماء أليفة قريبة. كنت ممتلئاً بمراقبة الراكبين معي على ظهر الفيل، أيهم هو المجرم الذي

يخبئ النمل في ثنية بين أصابعه، أو تحت أظافره أو في ركن من جيوبه ويكمن مترصداً اللحظة المختلصة ليطلق نملته، أو نماله باتجاه أذن الفيل؛ ليتفجر جنونه في تلك البقعة القاتلة؟ لا بد أن ذلك المجرم سيفعل ذلك، ويجد وسيلة للهروب في اللحظة المناسبة متدليا بشكل ما ليهبط بسرعة، ويتعد عن الفيل الموشك على الالتياث. هل ستبهجه النتيجة الدامية والمخربة التي يتوقعها من إثارة جنون الفيل؟ أسينتشي بالفرجة على البشر وهم يهوون، ويتهشمون، وتمزق أجسامهم على الحجارة وحواف وأسنان الصخور، أو تنهرس مدمّة على هذه الطريق الحجرية؟ لا بد أن هناك نشوة ذاتية ما يستشعرها هؤلاء غير ما يزعمونه، أو يعتقونه من آراء سياسية، أو معتقدات دينية، أو ثارات عرقية. هل هي نشوة تشبه ما أحسسته مراراً في مواجهة الأخطار؟ نشوة أخرى للأدرينالين تجعل من يقومون بزراعة الرعب وإثارته، دون أن يصيبهم، تهيج أجسامهم؛ فيوشكون على الطيران بفرح شقي، يُفعم التحقق الدموي تلك الأجسام بطاقة استنفار خارقة، إذ تومض في عيونهم صور الأجسام البشرية المدمّاة، التي جعلوها تتقطع أو تتقرب أو تندس، فتجتاح بشرات جلودهم قشعريرة شبق، فيما رجفة التذاذ خفي تهز دواخلهم، ولا يكشف عنها إلا التماع شهواني يرق في العيون المتلصصة؟

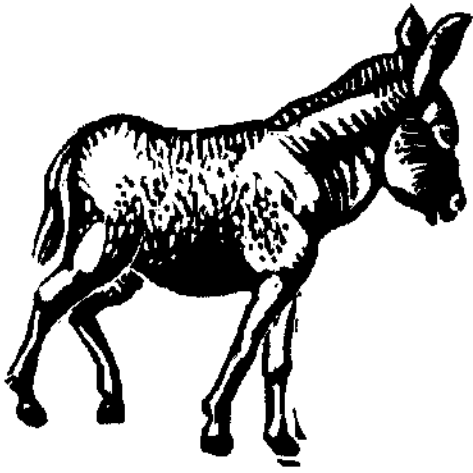
لم أستطع أن أرى نفسي إلا مدهوساً، أو مهروساً، أو أهوي في اتجاه حواف وزوايا الصخور، التي أمضى شفراتها وأحداً أسنانها الجفاف والتهاب الشمس. كان الفيل يبدو كأنما يصعد على جدار مائل وهو يرتقي الثلث الأخير من الطريق الصاعدة نحو القلعة، على الرغم من التصاق الركاب بأماكنهم والتشبث بسياج السرج الحديدي، أو إنشاب أصابعهم في قماش المرتبة السميكة تحتهم، إلا أن صعود الفيل - وقد رأينا رأسه الضخم يظهر عالياً أمامنا - أراحنا جميعاً إلى الوراء، وكدس أجسادنا الغشرة في الركن الخلفي. كانت هناك صيحات استشارة، وصرخات مرح، لكن صرختي لم تكن إلا رعباً خالصاً، إذ وجدت نفسي أنقذ، ثم أنزل على كفل الفيل خارج الحاجز الحديدي

وأصابني تشبث بغضون الجلد الرمادي السميك في فزع، بينما أقدامي تهوي في فراغ. وبذلك اللياقة المعجزة التي تتفجر في كيان المرعوب استطعت أن أمسك بذيل الفيل بين قبضتي المحكمتين، اللتين عملتا بدقة لا شعورية متناهية متيحتين لثقلي أن يهبط، وكأنه ينزلق على «ماسورة» ثابتة نحو الأرض.



وبحسابات اليقظة الفائقة للمرعوب، وبينما قدماي على مقربة نصف متر أو أقل من الأرض، استعاد جسدي ذكرى بعيدة للاعب جمباز يُطَيَّر جسده في حركة «آرش سوينج» خاطفة توسّع أرجحته لتبعده عن «بار» «عقله» أو طرفي «متوازي». أفلتُ ذيل الفيل، بينما جسدي يتعد عن حراك القدمين الثقيلتين الساحقتين. سقطتُ على كعبيّ بعيدا وقرصت متدحرجا لأنظر ح على ظهري، ثم أميل على جانبي في النهاية، وأحدّق.. كان الفيل يواصل صعوده، بينما الركاب على ظهره ملتفتين ينظرون نحوي بعيون واسعة؛ من فرط الاستغراب! ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي



● والحمارة في المنام امرأة معينة على المعيشة كثيرة الخيرات، نسل وريح متواتر. ومن ركب حمارة في منامه خلفها جحش فإنه يتزوج امرأة لها ولد. ولفظ الأتان من الإتيان، وربما دل صياحها على الشر والأنكاد.

● لبن الأتان يسقى منه الصبي الذي يكثر بكاؤه يزول عنه.
(القزويني - عجائب المخلوقات)

الأُتُن

لا بد أن أذكر، وأنا أستعيد كل شيء؛ لعلني أفهم ما حدث، أنني استيقظت من قيلولة العصر يومها مخدراً نشوان كمالم أعتد أبداً، وكأني ثمل، وقد يكون ذلك بسبب الجهد الذي بذلته في الصباح، لتفسير زوجتي والأولاد لقضاء الإجازة في بيت جدتهم، وأيضاً للهدوء المفاجئ الذي ران على الشقة بعد أن صرت وحدي فيها. أعددت كوب الشاي بالنعناع الذي أصبحو بعد القيلولة مشتاقاً إليه، مضاعفاً كمية الشاي وكذلك النعناع وبعض السكر، ولم أكد أرفع كوب الشاي إلى فمي بعد أن استرخيت على أحد الفوتيهات في الصالة، حتى روعني جرس «الإنتركم»، المثبت إلى جوار باب الشقة، رن رنينا مفرغاً وكان قوته وحدته تضاعفتا عشرات المرات، انتفضت واقفاً، وانسكبت أول رشفة من الكوب الساخن على يدي، ووقع بعضها على البلاط الفاتح اللامع بين قدمي، تماسكت بالكاد مانعاً سقوط الكوب من يدي الملسوعة، ووضعتة في غيظ على

المنضدة الصغيرة إلى جوار الفوتيه، ثم أسرعْتُ لأُسكِت إرهاب «الإنتركم»، رفعت السماعه حانقاً، وصرخت كما لم أفعل قط في حارس البناية المناوب عند المدخل:

– إيه يا عم حسين.. إيه؟

– ضيف طالع لك يا دكتور.

– وإذن.. أي ضيف.. ما اسمه؟

في العادة لم أكن أسأل عن مثل هذه التفاصيل، ولم أرفع صوتي كما في هذه المرة، كنت أكتفي بالقول في هدوء: «خليه يتفضل»، فمعرفة القادم لم تكن تتأخر أكثر من دقيقة، أي الوقت الذي يستغرقه المصعد حتى يصل إلى الطابق الثالث، الذي تقع فيه شقتي. بوغت الرجل الطيب «عم حسين»، ويبدو أنه ارتبك تماماً إذ ظل ساكناً، لكن بدلاً من إجابته سمعت قرعقة عالية سرعان ما تلاشت، وتناهى إليّ صوت غريب يحادثني:

– «عفوا.. أنت لا تعرفني.. لكنني أعرفك.. أعرفك تماماً.. أنا صاعد إليك».

عادة ما أكون سريع الانفعال إلى درجة ارتكاب الحماقات في مواجهة الصفاقة، ورد الفعل الذي كان يناسبني في حالة كهذه، أقله أن أصب «دوشاً» من الغضب على رأس المتطفل في مثل هذه الساعة، لكنني بدلاً من دوش الغضب الذي كان ينبغي أن أصبه على صاحب الصوت الغريب خلال الإنتركم، وجدتني أتلقى «دوشاً» بارداً لا مرئياً ولا صوت له، فعلاً، وغامض التأثير، سَمَرني في مكاني، وجمدني على الهيئة التي كنت فيها، رافعا سماعه الإنتركم قرب أذني اليمنى، ودون أن أسمع صوتاً للجرس، أو قرعاً على الباب، وجدتني أتحرك كالمسرنم، أضع السماعه في مكانها، وأفتح للقادم.

لبرهة فزعت، إذ لم يكن خارج باب الشقة غير عتمة الردهة، وبصيص من ضوء المصعد في الطرف البعيد، وهو ما يؤكد صعود القادم الذي لم أتبينه على الفور، فأين ذهب؟ فكرت في أنه يمازحني، فتنحى جانباً على الدرج المجاور للباب، حتى أتحير قليلاً، امتلأت غيظاً من احتمال هذه المزحة، وللمرة الثانية اختفت اندفاعات استنكاري الهجومية، ووجدتني أنبس بوداعة متهادية من أفق بعيد، وأنا في تلك اللحظة التائهة:

– تفضل.. تفضل.

وبدلاً من أن يأتي القادم من الركن القريب من الدرج، وجدته يبرز أمامي.. كأنه انبثق من العتمة، أو أن أحداً ضغط مفتاح نور السلم في هذه اللحظة فتبينته، لكنني تذكرت أن نور السلم كان معطلاً منذ فترة، فقد ماطل بعض السكان في دفع مشاركاتهم لشراء جهاز جديد له، ولم يتم إصلاح القديم.

ثمة شيء غير عادي كنت أستشعره في الزائر الغريب، وكأن طيفاً من ضوء أزرق شديد الخفوت يمس بشرته الفاتحة مساً خفيفاً؛ مما جعلني أبحث عن أي مصدر يشع بهذا الضوء، أو يعكسه، من محتويات غرفة الجلوس التي دعوته إليها، لم يكن هناك أي مصدر يشع بهذه الزرقة، بل كان اللون الأزرق، تحديداً، غائباً عن كل محتويات المكان. قطعاً لم يحدث أن رأيت هذا الرجل قبل حلوله على بيتي، قطعاً لم يتصادف أن مررت به في أي مكان، وترك ولو أصغر انطباع في ذاكرتي، كان شخصاً غريباً أراه لأول مرة في حياتي، ومع ذلك بدا وكأنه يعرفني جيداً، ويعرف بيتي أيضاً، إذ كان يتصرف بتلقائية، ويجلس في استقرار ودون تطلع، كمن يألف المكان ويألف صاحبه. كنت أنا المتململ والمرتبك والتائه، وعندما لاحت على وجهه علامات غمٍّ، وإن عابرة، تصورت أنني ربما أمسك به في مكان متوارٍ

من ذاكرتي، لكنه نفس هذا الاحتمال عندما بادرني بحسم هادئ يشبه الأمر:

– «أنت مطلوب».

ظننت أن الأمر قد استبان، وأنه جاء يستدعيني لإحدى الجهات الأمنية، وشعرت ببعض الطمأنينة لهذا الخاطر، إذ إنه بخّر سحب الغموض التي جعلت خيالي يمعن في الهواجس التي وصلت إلى حد أن أراه، رأي العين، يلتف بلمسة من ضوء أزرق لا وجود له، لم أكن خائفًا من أي استدعاء لأي جهة؛ لأن اتجاهي الذي بات معروفًا للكافة في السنوات الأخيرة، وهو عدم الاهتمام – شبه المطلق – بعالم البشر، والاستغراق في الاهتمام بعالم الحيوان.. هذا الاتجاه لم يكن ليزعج أحدًا، وجعلني التفكير على هذا النحو أسترخي في مواجهة الزائر. وكدت أشرع في مناوشته بتساؤل مازح، يستكشف الجهة التي جاء يستدعيني إليها، لكنه صعقني بقول مباغت، كأنه يقرأ ما أفكر فيه:

– «اهتمامك بسلوك الحيوان هو الذي يجعلك مطلوبًا».

عاد الضوء الأزرق شديد الخفوت يلمس جبهة الرجل، وتبينت فيه ملامح الجذور المتوسطة: الجبين العريض، والجلد المستقر، والعيون التي يختلط فيها الأزرق بالأخضر البني، والشعر الأجعد على الرغم من نعومته ولونه الفاتح. ملامح تدعو للألفة، كما لو كان الرجل سكندري الأصل، لكن هذه الملامح كانت محاطة بإطار خفي من السطوة والقطع، ولم أكد أفكر في مجادلته بأنني لست بعالم، بل مجرد باحث هاو، تثير فضوله سلوكيات الحيوان، حتى صعقني من جديد:

– «تفسيرك لمغزى وجود الأفيال الإفريقية، وتتبعك لتراجيديا دبية الهيمالايا، ودحض ما هو شائع عن سلوك النعام، هذه وغيرها تؤكد على طلبك الآن».

نهضت مذهولاً أمامه وقد استسلمت تماماً لأن أتبعه إلى حيث يريد،
فعمليّ عن الأفيال الإفريقية ودببة الهيمالايا منشوران، ويمكن لأي إنسان
أن يستشهد بهما، أما مسألة سلوك النعام فهي مذهشة تماماً؛ لأنني كنت
بادئاً بالكاد في كتابة أول سطورها التي لا تفصح عن شيء، ولم أتحادث
إلى أي أحد عن خطوطها العامة، والتي تتضمن فكرة «دحض الشائع»
هذه.

نهض قبل أن أعود للجلوس أمامه، واستدار ماشياً في الصالة باتجاه
باب الشقة، فسرت وراءه، ولما كان وجهه وعيناه اللامعتان ليست في
مواجهتي، فإنني استفقت إلى خاطر مقلق، فثمّة احتمال لتعرّضي لخدعة
ما، ومن الضروري أن أتسلح بأي شيء أدافع به عن نفسي، إذا ما واجهت
عدواناً، فكرت أن ألتقط سكيناً من المطبخ، بسرعة، دون أن يراني،
وأخبئه تحت ملابسي، لكنني خفت من تصعيد ارتياحه إلى هذا الحد
بحركة واحدة تستلقت انتباهه، ولا أستطيع تبريرها، ثم إنني لا أتصور أن أطعن
أحدًا بأي شيء، حتى لو كان ذلك في معرض الدفاع عن النفس، ووجدت
البديل الذي يمكن تبريره في طريقي، واحدة من تلك العصي التي أحب
اقتناءها من أماكن مختلفة من العالم، وأعلقها هنا وهناك على حوائط بيتي.
كانت تلك «البوزمية» المصنوعة من خشب «الساج» المتماسك الصلب،
المصقولة، والمجفّفة بزخارف آسيوية غائرة من النحاس تزيدها ثقلًا وصلابة..
كانت كأنها تهتف بي: «التقطني». التقطتها بقفزة صغيرة سريعة، وإذا بمن أتبعه
يلتفت إليّ بنظرة خاطفة لا تعبير فيها، ثم يردد وهو يواصل سيره ويقودني
للخروج:

— «جيدة.. ستفعلك.. ربما تفعلك»

ابتعدنا عن البيت وأنا أتبعه، وإن بدوت ماشيا إلى جواره، تصورت أن معه سيارة أوقفها غير بعيد، لكن هذا التصور تلاشى بعد أن سرنا مسافة، وانعطف هو وأنا وراءه في شارع «السلولي» باتجاه شارع مراد، كنت بشباب البيت، وأنتعل «شيشبًا» وشعري على الأغلب مهوش كشخص مستيقظ لتوه من النوم، ومع ذلك لم يخالجنني أي شعور بالخجل، وأنا أسير في الشارع على هذا النحو. لم أكن خجلًا، بل ممتلئًا بالوجل، وهو يقودني بخطى ثابتة إلى غاية لا أعلمها. جعلني اختياره لشارع السلولي باتجاه شارع مراد، أتوقع أن يوقف سيارة تاكسي تتوجه إلى ميدان الجيزة، أو تأخذ الطريق عبر النفق لتصعد كوبري عباس إلى الجانب الآخر من القاهرة، لكن خطواته لم يتغير إيقاعها عندما وصلنا إلى شارع مراد، الذي لا ينقطع سيل السيارات فيه.. راح يقطع الشارع المجنون بهدوء بارد وأنا أتبعه، مدعورًا في البداية، ثم مدهوشًا غاية الدهشة بعد خطوتين أو ثلاث.. توقف سيل السيارات تمامًا كأنما بإشارة مرور خفية، وانفتح أمامنا طريق آمن إلى رصيف الضفة الأخرى من الشارع، كانت السيارات تتراكم متوقفة دون أن يصدر عنها أي صوت، ولما عادت إلى الحركة وراء ظهرينا لم يكن يصدر عنها أي صوت أيضًا، ثم كان السكون أمرًا منطقيًا ونحن ندلف شارع «كافور» الهادئ، والذي لا تزال تحرس هدوءه قوات الحراسات الخاصة، التي لم تترك أماكنها، وإن قلّ عدد أفرادها، حول بيت الرجل الذي لم يغير اغتياله من جثوم قوات الحراسات الخاصة حول أسواره، فلا تزال زوجته هناك.. الذي تغير هو إتاحة المزيد من إمكانية التحديق إلى البيت، الذي أزال الموت التراجيدي لصاحبه، تلك السطوة التي كانت تشع من أسواره البيضاء العالية، وهامات النخيل الملكي في حديقته، وستائر الدانتيل البيضاء الموحية وراء زجاج النوافذ، غزارة الزهور في الشرفات المزخرفة كانت كما هي، وكذلك البرج الأنيق الأشهب في قمة البيت. غياب مدو في صمت ثقيل، واستوحاش قاتم على الرغم من إشراق البيت الأبيض سُكري البياض، يسطع فيما تبقي من ضوء النهار ونحن نمربّه! تخيلت تلك السيدة التي بقيت وحدها في هذه المساحة الشاسعة

من الوحشة، وزوال السلطان، وذبول العمر، كانت سيدة بيضاء جميلة، وكان جمالها يضاعف من نفوذها الواسع.. لمحت ظلاً يتحرك خلف إحدى الستائر، فتعلق بصري بالظل وصرت أمشي بظهري، لكنني أفقت على من أتبعه يتعجلني، كان قد اجتاز بي شارع النيل، وقادني على رصيف الكورنيش نحو مدخل نادي اليخت، راح يهبط الدرج الحجري وأنا ألحق به، انعطف يساراً وصعد على الجسر الخشبي الصغير المعلق إلى شرفة المطعم العائم، ولم يكن هناك من يستوقفه.. بدا المكان وكأنه أخلي من العاملين به ومن أعضائه، الذين يكثر توافدهم عليه في مثل هذه الساعة، ومن نهاية الشرفة هبط، وهبطت وراءه على مرسى متحرك نحو أحد الزوارق متوسطة الحجم والهيئة، والذي كانت أنواره مضاءة، تحرك الزورق شاقاً طريقه بنعومة بين الزوارق واليخوت المتكاثرة على صفحة النيل في هذه البقعة حول مطعم النادي، ولولا ذلك الارتعاش الخفيف في انطلاقه لما بدا أن محركه يعمل، فقد انطلق دون ضوضاء، بل دون صوت، إلى عرض النيل الواسع، فيما جلستُ على مقعد في صالون متهالك صغير بجوف الزورق، دون أن أنبس بكلمة.

كانت المياه الخافقة والمتماوجة بفعل حركة الزورق المنطلق، تبين قريبة من زجاج قمرتي الصالون الصغير، وكانت القاهرة تشرئب فوق الماء زحاماً من العماثر، والأبراج السكنية، والفنادق الشاهقة، والجسور.. لم أكن أستطيع رؤية الضفة النيل الشرقية التي نتجه إليها، وكان كل ما أراه يقع في الضفة الغربية التي نغادرها، هل كان تصميم قمرات الزورق هو المسئول عن ذلك؟ أردت أن أسأل الرجل الذي قادني إلى المكان، ولم يكن موجوداً، وتذكرت أنه غادر الصالون لأمر ما يتطلب وجوده على السطح، لكنه غاب، وطال غيابه، أو هكذا شعرت، إذ بدأت ألاحظ هبوط ذلك الشريط البرتقالي المتوهج، الذي تعكسه شمس الغروب على الماء، ثم أخذ الشريط يتكسر وينطفئ

رويداً رويداً حتى تلاشي فجأة، واكتشفت حلول الليل على مياه النهر. تلامعت الأمواج السوداء عاكسة ضوء مصابيح بعيدة، أو نجوم، ثم أخذت التماعات الماء تتأجج بشكل متسارع، حتى خلت أنها تعكس صورة آلاف المشاعل على الشاطئ الذي هجست باقترابه، أحسست بالخوف ثم الرعب، وكان قلبي ينتفض في صدري، وحلقي يحترق من جفاف مباغت إذ هب لي أن الزورق يشق طريقه وسط نهر من نار، نهضت مرتعباً، وما كدت أنادي على الرجل الذي جلبني حتى فوجئت به قبل أن يخرج صوتي، يقف بأعلى الدرج الداخلي الذي يصعد من الصالون في جوف الزورق إلى السطح، يناديني:

– «وصلنا.. اطلع».

تساندت على عصاي تسانداً حقيقياً؛ إذ كنت أعاني إعياء شديداً لم يسفر عن نفسه، إلا بعد أن هممت بالحركة، الإعياء نفسه المشوب بالدوار، والذي يمكن أن يداهم الإنسان بعد طيران طويل يعبر فيه محيطاً أو قارة كاملة، لكن هذا الإعياء تنحى أمام صورة الماء المشتعل، أو الذي يعكس لهيب الاشتعال، وأراه عبر قمرتي الصالون الصغير.. رحت أشد يميني خشب الدرايزين المصقول للسلم الصغير شداً، بينما كنت أطعن بطرف عصاي - في يساري - درج السلم طعناً يدعم ارتقائي، صعدت الدرجات القليلة بقدميَّ ويديَّ، فعلاً، وبدا ذلك كأنه استغرق مني وقتاً يكفي لصعود سلالم برج سامق، ثم توقفت بأعلى السلم ألّهث، روعني انعكاس الوهج الأرجواني الذي كان يخفق على وجه صاحبي، ويخفق على يدي، وعلى أعمدة وسقف برجولة السطح، فتطلعت عبر المساحات الواسعة المفتوحة لأرى ما لم أستطع تصديقه: ضفة نهر من تلال متماوجة تشب فيها النيران بضراوة، وتضيئها جميعاً برعب حريق شامل. صرخت مرّواً:

– «لا.. لا.. هذه ليست القاهرة».

استدرت بعافية دبت في جسدي فجأة، وأمسكت عنيماً بصاحبي أهزه من كتفيه وأنا أصرخ في وجهه:

– «أين أنا؟ .. أين نحن؟»

ولدهشتي شعرت بالرجل خفيفاً وهشاً كما لو كان دمية خاوية، وقرأت في وجهه الذي تتلاعب عليه أضواء النيران أعمق أسف، وأسي، يمكن أن ينضح به وجه كائن بشري، ثم إن لحيته كانت قد ابيضت، وطالت، واشتعل رأسه بالشيب كأنه شاخ في لحظات.. لم يتكلم، ولم أتكلم، ولم أزد أن أسأله مزيداً؛ لأنني وجدت اليقين يطفو صاعداً في رأسي كما لو أن برنامجاً أخذ يشغل في عقلي ويعرض على ذهني معطياته: «هذه لا يمكن أن تكون إلا روما وهي تحترق؛ فهذا نهر التيبر يشق أرضها المتماوجة ذاهباً إلى البحر، وهذا هو «البالاتين» أكبر تلالها السبعة تعتليه البلدة القديمة، وها هي ذي النيران تلتهم الحي الشعبي في السفح، وتنتشر هابطة في كل السفوح، ثم تصعد متشبهة كل الذرى، إنها روما تحترق، حريقها الكبير، والعام هو الرابع والستون الميلادي، فأين نيرون؟ خطر لي السؤال، وإذا بي أحلق في سماء المدينة التي اختلط سواد ليلها بسواد دخان حرائقها، وإضاءات السنة الذهب، أنتقل طافياً باتجاه قمة من قمم روما كأنني في «كبسولة» لا مرئية، أو أنني أغوص في عمق مشهد من المشاهد ثلاثية الأبعاد، وتعلق «كبسولتي» الخفية إلى جوار شرفة يطل منها ملثا شائه، وإن كان يرتدي زي الإمبراطور، بطنه كبير، وأرجله قصيرة عجرا، ورأسه مفرط الثقل، يشير إلى المدينة التي تحترق تحته متهللاً عظيم الانتشاء، يتابع بسبابته اليمنى المنتفخة شيئاً أو أشياء متحركة، ثم يضحك في جنون، ويردد عبر ضحكته:

– «مشهد.. ياله من مشهد! مشهد رائع».

عاد يكرر الإشارة والتتبع دون أن يتوقف ضحكته، فنظرت ملياً إلى حيث يشير، وتبعت ما يتبعه، فاكشفت مشاعل متوقدة تمرق مثل شهب غليظة عصية

على التلاشي، تأخذ من النيران هنا وتُشعل بها حريقاً هناك، تدخل في النيران وتخرج منها أكثر توهجاً وسرعة، تعبر نيراناً جديدة، لتشعل نيراناً جديدة، فمن هم مشعلو الحرائق هؤلاء الذين يتفجّر لإجرامهم ضحك نIRON؟

– «هذا ما أتيت أنت لرصده».

سمعت صوت مرافقي يرد على السؤال الذي خامرني دون أن أتفوه به، وكان يأتي عن يميني، فالتفتُ لكنني لم أره، لم تكن هناك مساحة لمزيد من الرعب والدهشة، فلم أتوقف طويلاً أمام غياب الصورة، وسماع الصوت، ووجدت نفسي أمعن في المشاعل المارقة، والمتقاطعة في حريق روما الكبير المرعب، وكنت وأنا أمعن أقرب وأقرب، حتى رأيت ما رأيت، فصرخت مدهوشاً:

– «إنها حُمُرٌ مشتعلة!»

كانت تُعدُّ بالمئات، وهي في رعبها تجري عمياء مروعة، فتدخل في نيران جديدة تؤججها أكثر، تعميها وتروعها أكثر، فتسرع أكثر، وتوسّع الحريق أكثر.

اقتربت مزيداً فاكشفت أن هذه الحُمُر جميعاً من الإناث، أتن ممثلة الضروع، بل ممثلة إلى حد الاحتقان، وحليها المحبوس يشخب وهي تركض، فيطفئ مسارات دقيقة يتصاعد منها بخار ملامسة الحليب للنار، وسرعان ما يتلاشى البخار وتلتئم مسارات الانطفاء، يُؤج فيها اللهب من جديد، بل يصير أكثر اضطراباً، بينما المشاعل الحية تنتقل، وروما تزداد احتراقاً، من أين أتت كل هذه الأتن؟

برق في ذهني السؤال، وإذا بالإجابة تأتي عن يميني:

– «أصلها كان لأجريينا.. أمه.. ومعظمها لسابينا محظيته.. والبقية لنساء ومحظيات رجال الحاشية».



كان لاجتماع اسمي أم نيرون «أجريينا» ومحظيته «ساينا بوبيا» تأثير انفجار مضيء في ذهني، وراحت الذاكرة تعمل كأنها تستقبل بثاً من أعماق سحيقة، فأرى ركب «ساينا بوبيا» الإمبراطوري، وهي تتنقل بين المدن التي يحكمها من حظيت بولعه، وفي وسط الركب يتحرك قطيع من خمسمائة أتان لم تكن لتفارق ركبها أبداً.. كانت ساينا تستحم يومياً، عند الضحى، بجرار من حليب هذه الأتان الطازج الدفئ، كان حليب هذه الأتان هو إكسير جلدها المغوي، يجدد حيويته وفتنته، ويمنحه طراوة ونعومة تخلبان لب نيرون، فتحدث المقايضة: تستحوذ المرأة النرجسية على بعض من نفوذ الاستبداد الذكوري، ويتسلل إلى

الرجل النرجسي بعض من أهواء الأنثى التي تحركها الغريزة، ويمعن كل طرف في تمويه هذا التبادل، فتزيد المرأة من نعومة جلدها، ويزيد الرجل من خشونة بطشه.. أليس هذا بعض ما يفسر سعار وحشية نيرون، بعد ارتباطه بسابينا بوبيا، التي جعلته ينتزعها عنوة من زوجها الذي كان صديقاً له؟.. بعدها قتل زوجته «أوكتافيا»، ومعلمه «سنيكا»، ونحر آلافاً من البشر قبل أن ينحر بسيفه «سابينا بوبيا» نفسها!

– «وأمه؟»

جاء الصوت، عن يميني أيضاً، فلم ألتفت؛ إذ وجدت المشهد الفظيع يتجسد لي: «أجريينا» الأم وقد ركلها نيرون، ورفع سيفه عليها؛ فانطرحت تحت قدميه تصرخ فيه بلوعة مسعورة:

– «هيا.. ابقر هذه البطن التي حملت الوحش».

ولم يتأخر عن تلبية صرختها، فهوي عليها بسيفه، وظل يهوي في جنون، يقطعها ويبعثر دمه، ويقفز مبتعداً كلما نذت عن الجسد المقطع أدنى حركة، كأنها حية عملاقة لا يأمن شرّ لدغتها وهي تحتضر، حية لم يرتو عطشها للتسلط الذي لم تكف عن السعي إليه لعباً بالذكور.. خانت أباه القنصل لتقترن بالإمبراطور، ولعبت برأس الإمبراطور؛ ليرث ابنها الصغير السلطة، وعندما كبر ابنها بعد أن صار إمبراطوراً وأراد أن يوقف تسلطها، تأمرت عليه ليزيحه الابن الشرعي للإمبراطور الذي أزاحته من قبل.

ذهبت «أجريينا» وجاءت «سابينا»، فورثت عنها ما تركته من أتن، وزادتها عدداً حتى بلغت خمسمائة، وتبعثها كل المحظيات، صارت سياسة الأتن حرفة رائجة في روما نيرون، وانتشرت حظائرها في الحي الشعبي حيث يُقيم سياسها، ويشب الحريق فتشتعل الأتن، ويدفع رعب النار بمزيد من الحليب في ضروعها، تحتقن الضروع مضيضة إلى آلام النار ألماً جديداً، وتهيج الأتن المشتعلة هاربة من النار إلى النار، تتحول أجسادها إلى مشاعل تشعل غيرها، فيستعر حريق روما.

– «ياله من مشهد رائع!».

لم أعد أسمع صوت المجنون، لكن قهقهة هتافه كانت تترجع في داخلي بأصداً رنانة، وأدركت أن افتتاحه كان منصّباً على نقاط المشاعل المتوهجة، التي ترسم في حراكها خطوطاً أرجوانية، تتصادم وتتقاطع وتتوازي، على خلفية السنة النار البرتقالية، ورمادية الدخان، وأطلال البيوت التي تفحمت، كان يعتقد أنه شاعر مجيد، وكانت آخر كلماته وهو ينتحر، بعد ذلك بسنوات، طاعنا نفسه بسيفه:

– «ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي!»!

هل كان محتملاً، لو لم تدفعه أمه إلى الحكم، أن يتحقق في شاعر، أو فنان، أو حتى مجرد إنسان مرهف؟ وهل كان إفلاته من فخّ أمه يقيه من مصيدة محظيته؟

– «لقد رأيت ووعيت.. فماذا تقول؟»

سمعت صوت مرافقي من جديد، وظننت أنني لو التفت إليه فلن أراه، لكنه كان هناك، عن يميني، وكنت أرى روما المشتعلة تبتعد رويداً رويداً؛ أدركت أننا عدنا إلى عرض النهر، ولم يكن لديّ ما يمكنني الإجابة به، فلم أنطق، مكثت على صمتي بعد أن عدت إلى الصالون الصغير في جوف الزورق، رأيت انعكاس أضواء النيران يخفت، ويزوب في ظلمة المياه والليل، فأدركت أن مياه «التبير» تمضي، بينما مياه النيل تجيء، تتلامع على ظلمة مويجاتها أضواء تلك النافورة التي تتوسط النهر، وأضواء الأبراج السكنية، والفنادق، والمطاعم العائمة، والجسور، التفت قائلاً لمرافقي بتأثر:

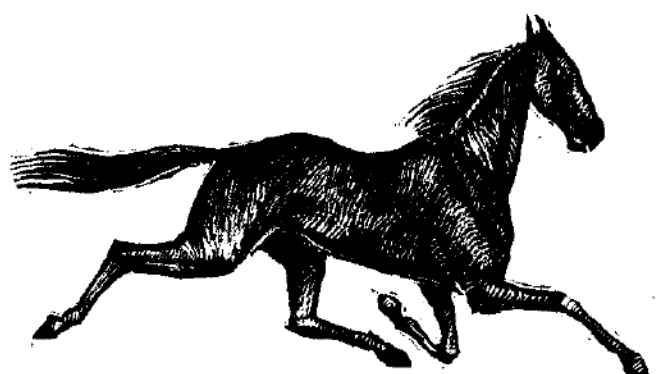
– «القاهرة..».

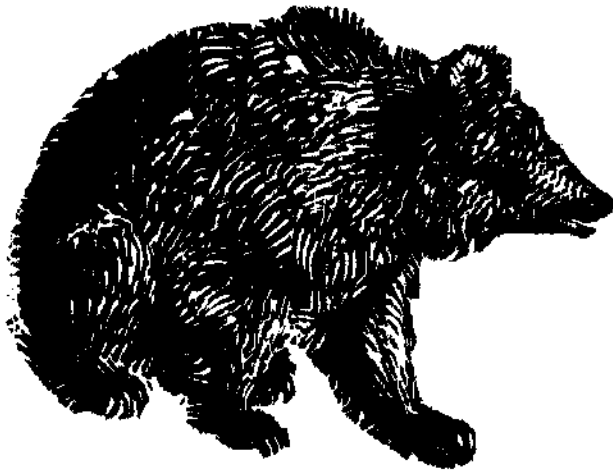
– «وأنت تعرف الطريق».

كان ذلك رده قبل أن يصعد إلى سطح الزورق، وكنت أحس أنني ثانية لن

أراه. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي





- وتشهد الظواهر أن الدببة تستمتع بالغروب، وتستمد لذة من التجربة الجمالية، ويضحك العلماء من سداجة التفسير، إذ كيف يكون الدب قادرا على التذوق الجمالي، والحالة التأملية، في حين يعتقد بعض علماء الجمال أن بعض البشر عاجزون عن ذلك؟!
 - ومما لا شك فيه أن المرء يمكنه أن يذهب إلى أبعد من ذلك، بأن يصغي - على سبيل المثال - إلى دب يرسل زفيرا ويزعم أنه يتنهد من الحزن العميق والوعي بزوال الأشياء، مراقبا عالمه ومفكرا أنه لن يعيش حتى يشاهد جمالا كهذا - وكأنه شاعر على هيئة دب. (جيفري ماوسايف، وسوزان مكارثي - الحياة الوجدانية عند الحيوانات)

دببة بيضاء / دببة سوداء

كانت القرية واطئة تحت الطريق، ولفتت نظري في ساحتها تلك الدببة السوداء المربوطة في الأشجار، بجوار الأكواخ الطينية المسقوفة بالقش، والتي تمثل نمط البيوت في هذه القرية التي بدت مهجورة، إلا من امرأة شاردة، وقفت تتابعنا بنظرها بعد أن أوقفنا سيارتنا وترجلنا لنهبط، وماكدنا نستقر على أرض القرية، حتى بدأت الأكواخ تلفظ ساكنيها في اتجاهنا، وظلت المرأة واقفة في مكانها خارج حلقة عشرات الدببة الواقفة تهتز، ومقصيها الضاربين على الدفوف، والأطفال أشباه العراة، والماعز، والكلاب.. تلك الحلقة التي أحاطت بنا كسوار كثيف من الحيوانات والبشر.

«فيفتي روبيا مستر.. تن روبيا.. تن روبيا.. تن روبيا». كانت عشرات الأيادي النحيفة الضئيلة تمتد إلينا، وعشرات العيون السود والبنية الطحينية تتطلع إلينا بالحاح وضراعة، أيادي وعيون الصغار والكبار على السواء، تطلب عطية من «السياح» الذين هبطوا إلى القرية بأقدامهم، بينما تعود سكانها أن يذهبوا، هم ودبيهم، إلى «السياح»، وحتى أبعد نقطة من حدود راجستان.

مشهد عجيب من الدببة السوداء المنتصبه على أقدامها، وقد شرع بعضها يرقص ذلك الرقص الثقيل المؤسي، وعشرات المرقصين الذين يمسون بأطراف الحبال المربوطة في رقاب الدببة، بينما تلك الدفوف الكبيرة تهتز لضربات أصابع المرقصين عليها، صخب إيقاع الدفوف، والأصوات السائلة شيئاً، وهرس عشرات الأقدام العارية لأوراق الكينا اليابسة المخشخشة على الأرض، حلقة من ضوضاء وصخب، لم يكن بينها قط أي صوت يندُّ عن الدببة الصاغرة، وتلك المرأة الشاردة الضامرة، التي انتبذت ركنا بعيدا، تطل علينا وعلى الحلقة التي أحاطت بنا بامتعاظ يائس، وكانت تتفل باتجاهنا واتجاه الحلقة، وتهمهم بلا صوت، أو بصوت لم يكن في مقدوري أن أتبينه إلا بالاقتراب منها، ولما شققت الحلقة متجهًا نحوها، تحولت الحلقة إلى شكل كمثري، كانت هي في طرفه، بينما تصطخب من حولي الأصوات: «دعك منها مستر.. دعك منها.. إنها مجنونة مستر.. مجنونة.. مجنونة الدببة».

«مجنونة الدببة» - لسعت التسمية خاطري بشكل بارق، فأمعنت في إزاحة الدببة ومارقصيها والزحام من حولي، حتى صرت أمام المرأة مباشرة. تبدو في نحو الثلاثين، وقد خرب الجنون والبؤس ملاحه ملامحها، التي يبدو مما بقي من أطلالها أنها كانت باهرة الحسن، وعندما اقتربت منها لم تجفل، ولم تكف عن هممتها ولا تعابير امتعاظها، لكنني وقد بذلت جهداً في إسكات المتجمهرين من حولي، صرخت بأقصى ما لدي من غضب ملوحاً صائحاً

بالإنجليزية: «سكوت .. سكوت .. أغلقوا أفواهكم»، وبالكلمة الهندية الوحيدة التي أعرفها: «بَسْ. بَسْ. بَسْ»، فكأنني سلطت شعاعاً سحرياً على الوجوه، التي كنت أجدجها ببصري بينما أصرخ، فتجمد الوجوه مغلقة أفواهها، ولاحظت برهة نادرة من الصمت تيقنت خلالها أن المرأة كانت تهمهم حقاً، لكن بلا صوت. تهذي بكلمات داخلية غامضة، رجحت أن فيها شتيمة ولعناً مغلولاً للناس الذين تراهم، وربما للحياة بأسرها، وبينما بدا للجمع أن محاولتي معها باءت بالفشل، عاد الصخب إلى سابق عهده، وإن بدأ متدرجاً قبل أن يصل إلى الذروة التي يستحيل فيها تمييز أي صوت منفرد، لكنني ظفرت بصوت يلقي ببداية ما: «إنها تعاشر الدبة بالليل .. مالك منها أيها السيد .. إنها مجنونة». طفت بالوجوه اليبسة المتشابهة قرب وجهي، أحاول استخلاص من يكون صاحب الكلمات التي لفتت انتباهي، لكن معزوفة الصخب كانت تطمس كل إمكانية للفوز بأي شيء عبر هذه المحاولة، وبشكل غير مخطط رحت أكرر فيما يشبه الزعيق: «إنها مجنونة .. تعاشر الدبة بالليل .. تعاشر الدبة بالليل!» وعثرت على وجه رجل يومئ لي مصداقاً على تلك الكلمات، فجذبت الرجل من رسغه، حتى أدنيت أذنه من فمي، ورحت أحدثه زاعقاً بالأسئلة: «المرأة تخالط الدبة بالليل؟» فأومأ مجيباً، «أنت تعرف حكايتها؟»، فكرر الإيماء بالإيجاب، عندئذ ملت على أذنه هامساً بزعيق مكبوح، طالبا منه أن يذهب إلى سيارتنا الواقفة على الطريق وينتظرنا.

«أقسم .. أنها تعاشر الدبة بالليل .. ويمكنك أن تتأكد من ذلك بنفسك .. سأقودك لتري ذلك .. ولن آخذ منك غير مائة روبية .. الدبة تكون خطيرة في الليل ولا بد لك من مرافق عارف بأمرها .. سأكون مرافقك .. ولن آخذ منك أكثر من مائة روبية .. بل خمسة وسبعين روبية فقط .. وسوف تراها وهي تعاشر الدبة».

مُرْقَصُ الدببة الذي اصطفتيه، واستبقني إلى السيارة، بصحبة دبه، قدم عرضه الذي جاء أزيد مما كنت أنتظره، وتنازل في مساومته حتى وصل بها إلى عشر روبيات! لم أكن من جانبي أساومه، بل كنت لا أصدق، وأحاول تنحية الفكرة المدهشة التي طرحها، وتلك المغامرة الموعودة تحت جناح الظلام في قرية مرقصي الدببة.. لم أكن أريد منه غير الحكاية التي يمكن أن تكون بحوزته عن امرأة مجنونة يشاع أنها تعاشر الدببة في الليل، لكنه بكثافة الإلحاح والإلحاف دفع نحوي لُقيا لم أكن أتوقعها، وكنت أعرف أن فضولي لن يقاوم عرضه الزهيد المثير؛ خصوصاً وأنه لم يكن يمسك من حكاية المرأة إلا بأطراف خيوط محروقة توحى بشيء لكنها لا تكمله، ومن ثم كان عرضه بأن أذهب معه في الليل إلى القرية الكائنة في سفح الطريق، حيث أكواخ القش، وعشرات الدببة المربوطة إلى جذوع الأشجار، ثم خروج المرأة إلى ساحة جنونها المزعوم في الظلام، كل هذا كان يشكل تجربة تصعب مقاومة إغرائها، وعلى الرغم من تحذيرات مرافقي الهندي «بيرام» من التبعات المحتملة لتلك المغامرة، كأن يفتك بي دب من الدببة، أو تفضح المجنونة وجودي فيستيقظ أهل القرية حيث يكون تراحمهم في الظلام مختلفاً عنه في النور، يصيرون هجوميين وشرسين كوحوش في الليل.. لم أرتدع، بل صرت مشدوداً بخيط سحري لا يُقاوم لخوض معاناة استثنائية، ثم إن الدببة لم تكن تخيفني، فهي مربوطة ومنتزعة المخالب والأنياب كما رأيتها بين أيادي مرقصيتها أو في ظلال الأشجار التي رُبِطت إلى جذوعها.

اتفقت مع الرجل أن نلتقي عند منتصف الليل، دون أن يكون معه دبه، في «فاتيهبور سيكري»، أسفل الدرج الهائل المؤدي إلى بوابة مدينة الأشباح الشاهقة؛ فقد كنا متجهين من جايبور إلى أجرا، مقفلين في الطريق التي مررنا بها من قبل، ولم أكن أعرف مكاناً قريباً من قرية مرقصي الدببة غير «فاتيهبور سيكري» التي تيقنت أن الرجل يستطيع بلوغها خلال عشر دقائق سيراً على الأقدام، في حين نكون وصلنا إليها من أجرا، ومن ثم ننتقل إلى القرية معاً،

نوقف سيارتنا على الطريق، ونتدلى إلى السفح الغارق في الظلام، نترقب
ظهور مجنونة الدبة، وعرضها المنتظر، ذلك العرض الاستثنائي، بعشر روبيات،
فقط!



في النهار مررنا بفاتيهبور سيكري، وفي الليل عدنا لنمر بها، في المرة الأولى نزلنا وعاودنا التطواف بأطلالها المترامية المهجورة، لعلها أكبر وأغرب مدينة أشباح في العالم، في الليل تبدو وكأنها تبرز بكامل شبحتها في الظلام، وعلى الرغم من انشغالي بالحكاية المحتملة لمجنونة الدبة، فإن حكاية «فاتيهبور سيكري» ظلت ناشبة مخالبتها في خاطري، مدينة هائلة من مدن المغول الذين حكموا الهند لثلاثة قرون بعد قدومهم المجتاح من آسيا الوسطى، مدينة أعدها الإمبراطور المغولي «أكبر» لتكون مقراً جديداً متفرداً لحكمه، مدينة إمبراطورية كاملة من الأحجار الرملية الحمراء داكنة الحمرة، بقصورها، وأبائها، وأبراجها، وثكناتها، وحوانيتها، وسجونها، ومقابرها، ومسجدها الكبير، كل شموخ وبراعة العمارة المغولية وزخارفها وضعها «أكبر» في هذه المدينة، لكنها لسبب غامض باتت مهجورة، قيل إن ذلك بسبب ارتفاعها وعدم امتلاء قنواتها بالماء بشكل مستمر، هل كان «أكبر» يظن أن الماء سيكسر قانون الجاذبية نزولاً على أمره الإمبراطوري، ويصعد إلى ذرى مدينته القابعة فوق الذرى؟ لم يصعد الماء وصارت قلعة «أكبر» مدينة أشباح، تصفر بين أبراجها الريح، وتسرح فيها القردة التي كان الإمبراطور يقتنيها، والتي لم تكف عن التناسل، والتكاثر في المكان حتى يومنا.. أمّا فضاء المدينة فهو مجال مفتوح للتقاطعات التي لا تنتهي، لمروق الخفافيش المعششة في أعالي أقواس البوابات الحجرية الشاهقة، وفي قمم الطوابي، وأركان السقوف.. حتى التجمعات العفوية لخلايا النحل البري بتجاويف الزخارف العالية، بدت لي لطخات مقبضة، وكأنها أعشاش خفافيش أخرى خاوية، على الرغم مما يقطفه مواطنو القرى المحيطة بالقلعة من عسلها البري الثمين.

شيء ما ظل يقبض قلبي كلما كنت في رحاب قلاع المغول، وقصورهم، ومقابرهم التي تشبه القلاع والقصور، كل انفساح الحدائق المغولية وأقنية المياه المديدة فيها، والنوافير البديعة، والصخور الصقيلة، والمرمر المطعم بأحجار ملونة كريمة، وشبه كريمة، ترسم بهجة من الزهور الفاتنة والزخارف البهية

والمعجزة.. كل هذا لم يستطع أن يرفع عن قلبي قبضة سوداء غامضة، ظلت تمسك به طالما كنت بين آثار المغول في الهند، حتى أمام ملامح الدعوة إلى التآخي بين الأجناس، والتسامح بين الملل، والمتجلية في مزيج العمارة والنقوش، لم تستطع أن تحل هذه القبضة الغامضة عن قلبي، وظلُّ «أكبر»- الإمبراطور المغولي الأشهر والأكثر دعوة إلى التآخي والتسامح- يشكل طيفاً ثقیلاً، ومقبضاً، على الرغم من أصداء عظمته في آثار الأمكنة وصفحة الزمان، لم أستطع تنقية خاطري من طعم القهر الذي شاب ما سمعته عن حكاية المودة التي قامت بين حكام راجستان من الهنود، وبين الإمبراطور الذي تركهم يحكمون في العاصمة «جايبور». لم يغزهم، ولم يقمعهم، فأهدوه إحدى بناتهم زوجة، صارت الأحب إليه بين زوجاته العديداً، ومحظياته اللائي يصعب عدهن.. لم أصدق أبداً تلك المودة، أستطيع أن أتخيل بهجة الحواس التي يمكن أن تفيض بها على الأميرة الهندية أنهر العشق والجمال والخيال المغولي، أستطيع أن أتخيل «الفانتازيا» الجسدية التي توحى بها الرسوم الملونة الفاتنة لكتاب العشق المغولي الجميل المثير «كاما سوترا»، لكنني لا أستطيع إلا تخيل فجوة الظلمة والقتامة في قلب الأميرة المهداة للإمبراطور؛ إذ تخلو بنفسها في هزيع الليل الأخير، أو يخلو بها ذلك الهزيع الأخير من الليل.

وكان الليل يفضني إلى الليل، ظلت أطياف «فاتيهبور سيكري»، والتي تعني «مدينة الفاتح العظيم»، تتلبس خواطري، تلقي بظلالها الثقيلة على صور من حكاية مجنونة الدببة، والتي توترت تشوقاً إلى معاينة مشهدها الختامي على الطبيعة، وأسعى إلى مسرحها المظلم في خباء الليل.

مدهشة طريقة اصطیاد الدببة في الهند، وترويضها لتصير خادمة مطيعة بين أيادي، وأوامر، وإيقاعات دفوف مرقصيتها، هؤلاء الناحلون الحفاة أشباه العراة.

وطويلة هي الرحلة التي تقطعها الدببة السوداء قادمة من ذرى هضبة التبت، ومن بين قمم جبال الهيمالايا، مودعة بريتها المطلقة، لتدعن مربوطة في الأشجار أمام أكواخ القش التي يسكنها أفقر فقراء الهنود، في تلك القرية القابعة في خسف من الأرض، تحت أقدام الطريق.

الدببة تحب النساء! وكنت أحسب أنها تكفي بحب العسل البري وتجن بالتهام الخصي، وأسماك السالمون، كما عرفت ذلك في أثناء وجودي في روسيا. في الهند اكتشفوا عشقها للصبايا، فحولوا هذا العشق إلى مصيدة، إذ يعمد الصيادون إلى إطلاق امرأة شابة فوارة الحسن في مراتع الدببة، في بقعة يعدون بأرضها كميناً مموها ببراعة، وبينما المرأة تمضي في طريق مرسومة، يكمن الصيادون في أعالي الأشجار، متوارين بالأغصان الكثيفة، جاعلين بنادقهم على أهبة الاستعداد لإطلاق النار، بينما أطراف حبال الكمين بين أيادي بعضهم.. يكتم الصيادون أنفاسهم، وتتسارع أنفاس المرأة؛ إذ يظهر واحد من الدببة يتبعها وكأنه مراقب بشري، راغب ومرتبك وذاهل، يتعقبها مبطئاً من سيره، مطأطئاً لا يكاد يرى غيرها أمامه، يفقد حذره كله، ويتعثر في خطواته بينما تحرص هي على ألا تتعثر على الرغم من فرط خوفها، تعبر فوق الكمين على جسر معلوم تدربت على عبوره من قبل، وبينما تجتاز فوهة الكمين يكون الدب في بؤرة السقوط؛ عندئذ تنشد الجبال من أعالي الشجر، فيهوي الدب، وتتنفس المرأة الصعداء.

بحبال المصيدة يوثق الدب، ويشد الرجال وثاقه مزيّداً، وللتو يشرعون في نزع أنيابه ومخالبه بد «كماشات» حديدية، حتى يتلطخ خطمه وصدره بالدم. وفي قرية مرقصي الدببة يبدأ الترويض، بعد أن تلتئم جروح الأنياب المنزوعة والمخالب، يتحول الدب إلى طفل مقهور أو شيخ كسير، لا سبيل لأن يحصل

على طعامه بنفسه، فلا بد من أحد يناوله طعامه، وطعامه كطعام الصغار أو الطاعنين في السن: فتيت من الخبز في الحليب أو الماء المُحلّي بالسكر، كل لقمة بطاعة أمر، وكل عصيان لأمر يحرمه من لقمة، والأوامر شتي، يقف على قائمته الخلفيتين منتصباً كالشجر، يهز رأسه على إيقاع الدفوف، أو يرقص على هذا الإيقاع بكامل ثقله.

يتحول دب الهيمالايا الفاتك الأسود، إلى مسخرة، لكنها مسخرة موجهة للقلب عندما يمعن الإنسان في دقائقها، فخطم الدب المنزوع الأسنان يبدو أدرد، رخوًا كأنه خرقة بالية، وأكف أقدامه المنتزعة مخالبها، تلوح كمقشّات ضئيلة شعثة، والجرم العملاق الذي ينتصب واقفاً، ثم مهتزاً على الإيقاع الركيك للدفوف بين أيدي المرقصين، يوحى بالتناقض المذل، أما العينان، فيا لتلك العينين الصغيرتين الموشكتين على البكاء! على الرغم من أن المشهد مصمّم ليعث المسرة في عيون المشاهدين.. شيء قاتل للمسرة تماماً لمن يمعن فيه ولو للحظة، لهذا كنت كثيراً ما أرى المشاهدين يدفعون للمرقصين دون أن يتابعوا رقص الدببة، إذ سرعان ما يشيحون عن المنظر وينصرفون، لهذا عجت من زعم أن المرأة تعاشر الدببة، حتى لو كان ذلك في عماء الظلام.

يوم قادوها من الجنوب البعيد إلى الشمال العالي لتكون طعاماً لدب، كانت بضّة وفاتنة، قوام سارح لدن، وبشرة حنطية ناعمة، وعيون واسعة بلون العسل، وعلى الرغم من أنها كانت تحمل وسم «الارتباط»، زهيرة منمنمة من الفضة بركن أنفها، فإنها لم تكن قد تزوجت بعد، وكان الزوج صاحب الوسم مرقص دبية شاباً مثلها، لكنه يابس وناحل وجفول، وكان ضمن فريق صيد الدب. عمّروا بنادقهم وخيموا بعد أن هياؤا الفخ في النهار، في بقعة من غابات سيكيم قارسة البرودة على الرغم من أن الوقت كان ذروة الصيف، دربوا المرأة على

مخطط الإيقاع بالدب عدة مرات، ثم أشعلوا ناراً تذبّ عنهم النمرور والذئاب، وتوزعوا بين نائم وحارس في مناوبات حتى يجيء النهار، أما هي، فقد أفردوا لها مساحة بركن الخيمة وتركوها تنام، لكنها على الأغلب لم تنم من الخوف مما يأتي به الغد، أم من ديب النمل الساخن في جسدها الفائر المحاط بأجساد رجال من بينهم رجلها، أم من هذا وذاك؟ لا أحد يعرف، لكنها لم تنم ليلتها كما أخبر الشهود وجمّعت شهاداتهم الحكاية، ولعلها غفت قليلاً في آخر الليل، إذ رأى الرجال وجهها نضراً في الصباح، وكانت همتها عالية، ثم بدأت طقوس صيد الدب..

صعد الرجال بنادقهم أعالي أشجار، ترسم دائرة واسعة حول بقعة الصيد، وأوعزوا للشابة أن تغني بدلال وتمايل، لا أحد يعرف هل هو صوت غناء الأنثى حقاً، أم غنجها، أم عبق أنوثتها هو الذي نادى دُباً من بعيد ليأتي ويقرب منها، أبصر الرجال من ذراهم الخفية كتلة السواد القطيفي الفاحم تشق أدغال الخضرة نحو مصدر التأود والغناء، وعندما دخل الدب الدائرة ألقى أحدهم بحصاة صغيرة خفيفة عند قدمي المرأة، مؤذناً ببدء تحركها، أنهت الأغنية، وتحركت، فتحرك في أعقابها الدب، كتمت الغابة الشاهقة أنفاسها، فلم تعد هناك غير أصوات أقدام المرأة تطأ ركام أوراق الشجر على أرض الغابة، وأصوات خطوات الدب يتعقبها مطأطأة لحظة، ثم رافعاً إليها عينيه الصغيرتين المغشأتين بالرغبة في اللحظة التالية.. ران على الغابة صمت عميق، فتبدت بوضوح أصوات أنفاس المرأة المتباطئة على الرغم من إسراع الرعب في عروقها، وكانت جلية أصوات أنفاس الدب المهتاج، خطوات قليلة قبل بؤرة الصيد، قليلة لا تتجاوز عدة أمتار، لكنها بدت للرجال القابعين في الأعالي طويلة لا تنتهي، وبدت للمرأة كأنها لن تنتهي أبداً، إنها المسافة الخطرة، بين وقوع الدب في الفخ، أو وقوعه على الفريسة، يرفع الرجال بنادقهم في هذه اللحظة، ويحكمون التصويب على رأس

الدب تحسباً للخطر، وقد وقع الخطر، تعثرت أقدام المرأة المرعوبة في غصن يابس كان مختفياً بين ركام أوراق الشجر المتساقط على الأرض، تعثرت لأنها حاولت الالتفات خلفها من شدة الرعب، وكانت في الوقت ذاته تحاول منع نفسها من الالتفات.

وقعت المرأة الشابة بطولها ممددة على الأرض، بينما وجهها ملتفت باتجاه الدب، وتوقف الدب عن الحركة حال وقوعها، كانت عيناها وعينا الدب تتبادلان النظرات، هي لا تبصر غير دب ضخيم فاحم السواد ساكن، يقف عند قدميها، وهو لا يبصر غير أنثى لدنة منطرحه على الأرض عند قدميه، وتساعد تراكض الأنفاس بين المرأة والدب في هذه المسافة الضئيلة التي تفصل بينهما، فيما كتم الرجال أنفاسهم تماماً فوق الأشجار المحيطة.

كان طبعياً أن تجمد الصورة وقتاً في مثل هذه الحالة، كأن المرأة يجمدها الرعب، وكأن الدب مراهق بشري يجمد إذ تنفتح أمامه فجأة أبواب فرصة لا يصدق حقيقة وقوعها، وفي هذه البرهة من الجمود يكون الرجال في مخابئهم الشاهقة قد رتبوا أوضاعهم، لإطلاق النار من عدة جهات على رأس الدب، حتى يصرعوه في لحظة واحدة، قبل أن يدرك الفريسة وتختلط حدة أنيابه ومخالبه بشدة اشتعال رغباته.

لكن هذه المرأة كانت استثناءً.

ففي برهة وجيزة بعد التوقف، خطا الدب خطوتين اثنتين، ناعمتين سريعتين، فصارت المرأة في حضنه، واختلط الأمر على حاملي البنادق فوق الذرى، فالدب الذي لا بد لم يكن مراهقاً، وكان ناضجاً لحد الاقتحام، تمدد من فوره على جنبه بعد أن أحاط المرأة المبهوتة بأطرافه الأربعة، صارت تتوسد كتفه، كأنه يحاذر أن يطأها بثقله حتى لا يصيبها بسوء، وكان إطلاق النار على رأس الدب مستحيلاً دون احتمال للقضاء على المرأة بطلقة تصيب رأسها الملاصق لرأس الدب، أو بأنياب الدب ومخالبه إذا حدث أن إطلاق النار لم يُزده صريعاً في الحال.

وجاءت لحظة جمود البنادق!

إذا حسبنا طول اللحظة بما يقع فيها، فإن هذه اللحظة كانت مفرطة الطول لحد استلاب العقل؛ إذ إن المرأة التي حولها الرعب إلى لوح من الثلج في حضن الدب، كان لابدّ لها من وقت كاف حتى يذوب ذلك الثلج، ولا بد أن الثلج قد ذاب على الرغم من دوام الرعب؛ لأن المرأة التي كفّ صراخها، وهذا تملصها، تلاحقت أنفاسها حتى صار بمقدور العيون فوق ذري الأشجار أن تلاحظ تنهدات صدرها، وهج جسدية برية مطلقة وجدت المرأة جسدها محوطاً به، الجسدية في عرامتها الجارفة، لا رديف الحيوانية المشتعلة، بل الحيوانية نفسها، خلاصة الرغبات الوحشية وقد وجدت لنفسها مكاناً حاراً في غابة النفس الإنسانية الكثيفة المتشابكة، ويبدو أن هذا الجزء الحار من الغابة في نفس المرأة ما إن أوشك على الاشتعال الفعلي، حتى دوى الرصاص.

دوى الرصاص إذن في لحظة اختلاط كبرى..

لحظة من الحنان المشتعل والرعب المحلّق من مصدر هذا الحنان في آن واحد، ثم جاءت طلقات البنادق، لا لتبذد ذلك الاختلاط، بل لتُثبّته.

يحكون أن الطلقات في مروقها المشتعل مسّت وجه المرأة بلذع ترك أثراً لما يشبه آثار الحروق، هذا في حين استقرت ثلاث طلقات في عنق الدب وشدقه ورأسه.

لم يمت الدب من فوره، وكان رد الفعل المعهود في مثل هذه الحالة أن ينشب مخالبه وأنيابه في أقرب لحم إليه، وكان لحم المرأة منه أقرب ما يكون. لكنه في مشهد أسطوري فتح أطرافه على اتساعها وتدحرج في بطن ليطلق المرأة دون أن تخذشها مخالبه، وكان يتأوه محتضراً بحشرجات آسفة كأنما يودع بها المرأة التي أصابها الدهول.

لم يبرحها الدهول أربعين يوماً بعد ذلك، لم تكلم خلالها أحداً، لم تتحرك ولم تأكل إلا إذا دفعوها إلى ذلك دفعاً، وفتحوا أفمها؛ ليصبوا فيه الحليب الذي

لم تقنت بغيره، ولبثت طوال هذه الأيام الأربعين على هيئة جامدة ومطبعة، كأنها تمثال من الشمع، قبل أن تنحل جمدها وتثبت على صورتها الذاهلة الهاذية، تلك التي رأيتها عليها في قرية مرقصي الدبة ذلك الصباح، فكيف تكون في الليل، وقد سعيينا إليها بعد منتصف الليل.

هل وسّع التوجس حدقتي عيني؟ أم أن ألق النجوم الكاثرة في ليل راجستان البنفسجي كان كافياً لإضاءة المشهد بنور فضي خفيف؟

تسللت مع مرقص الدبة، والسائق بيرام، إلى خسف القرية الغارقة في النوم. وبدالي أنني في حلم غريب، قوامه بصيص الضوء والكيانات الشبحية والظلال. أشباح الأكواخ وأشباح أشجار الكينا التي يهسهس فيها نسيم الليل.. أما الدبة، فلم تتجل لناظري على التو، إذ كانت راقدة، سوادها من سواد الأرض، كتل من السواد على السواد، لم تكد تكشفها لي إلا ململة وانية لهذا الدب الراقد أو ذاك.

توارينا خلف كوخ قادنا إليه مرقص الدبة، وانتظرنا، وبدالي أن الانتظار قد طال، ولعله عطش التشوف هو الذي أشعرنني ببطء مرور الوقت، فنخزت من يقف إلى جوارِي سائلاً: «هل تسخر منّا؟». وأجابني صوته مكبوحاً مشدداً على الكلمات: «أقسم أنها تخرج في الليل»، ولعل استكانتي العجيبة لنسيم هذا الليل هي التي هدأت فضولي، الصمت والظلال والابتعاد الخفيف والظلمة الشفيفة، كل هذا كان يهدد تشوفي، حتى كدت أغمض عيني عن هذا التشوف، وأنام واقفاً.. وفي اللحظة التي تنازلت فيها داخليا عن الرغبة في الفرجة، ظهرت المرأة كيانا من ظل يسري أو يطوف، هكذا بدت لي، ورحنا محاذرين نتعقب هذا الظل، وشرعت كومات من الظلمة تنهض واقفة في الظلمة، وكأن الدبة الهاجعة سرى بينها إشعار كقيم فنهضت تستجيب له، الآن دبّت الحركة في ساحة القرية، عشرات الدبة المربوطة في جذوع الأشجار كانت تنهض واقفة

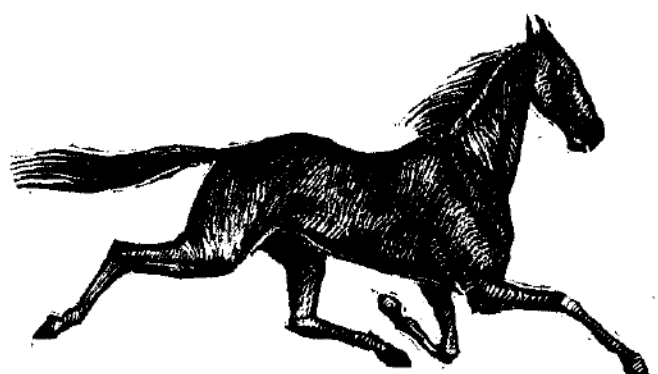
كالبشر، وراح الطيف الذي نتبعه يمر على الدببة، وتبينت دلوًا في يدها تحمله وتوشك أن تنوء بحمله، ولم يكن ثمة صوت غير صوت الخُطى الخفيفة على الأرض الترابية، ثم تبينت صوت المرأة الهامس، بل الحاني، كانت كلما اقتربت من أحد الدببة تقول له شيئًا، وترتّب عليه فيناغي بصوت كأنه طفل ممتن، تغترف بيدها مما في الدلو، وتلقم الدب فيزدرد عطيتها في لهفة وبصوت مسموع، ثم تودع الدب بتريئة من جديد قبل أن تمضي إلى غيره. «إنها تنادي الدببة بأسماء الناس.. بأسماء الناس تناديهم». مال مرقص الدببة على أذني هامسًا حتى أحسست ببؤس أنفاسه، ويبدو أن إلحاح السؤال لم يطق صبرًا داخلي: «ما هذا الذي تطعمهم إياه؟». كان صوتي أعلى مما ينبغي، فاسترعى انتباه المرأة، ولعلها كانت تجيد الرؤية في الظلام؛ لكثرة ما اعتادت الحركة في مثل هذا الظلام، إذ لمحتنا واحتاجت من فورها، صرخت قائلة شيئًا ما، ثم راحت تطاردنا قاذفة إيانا، ونحن نجري أمامها، بلطخ رطبة حسبتها طينًا تكشفه من الأرض، وهي تتعقبنا وتصرخ.

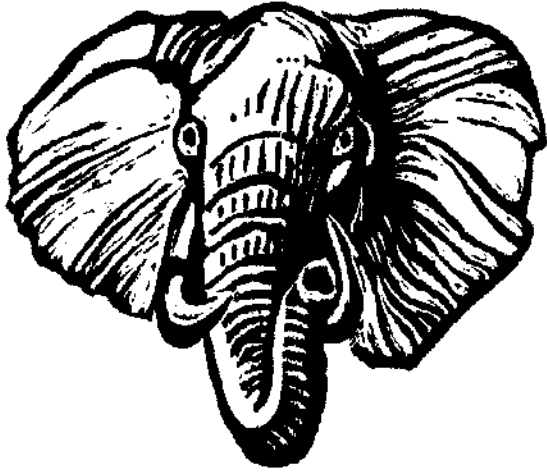
لم يكن هناك بدّ من الفرار والابتعاد عن القرية، وكانت سيارتنا التي تركناها على الطريق غير بعيد هي ملاذنا، وفي جوف هذا الملاذ الحديدي مكثنا نسمع صوت المرأة التي توقفت أسفل الطريق توجه إلينا صراخها، ثم بدأت أشباح عديدة تخرج من الأكواخ، تتحرك في الظلمة باتجاه المرأة الصارخة، لقد كانت القرية تصحو وتجيء، وتمثلت لي، في لحظة، غصبة جموع بائسة طيرنا نومها الضنين، ثم إن غضبتها المحتملة كان يحميها ستر الليل.

بعد أن ابتعدنا عن القرية مسافة كافية شعرت بالأمان، وانتبهت إلى لزوجة اللطخات التي كانت المرأة تقذفنا بها وهي تطاردنا، كانت إحداها قد أصابت جانب وجهي الأيمن، وتسلى شيء منها إلى فمي، كان خبزًا منقوعًا في ماء مُحلي بالسكر، هذا إذن ما كانت تغترفه من الدلو، وتطعمه للدببة، وهذا ماجعلني أنشغل بالتفكير في منظومتها العقلية المشوشة، والمنضبطة في هذه

الجزئية وحدها: ترتيب كل مستلزمات خروجها الليلي، الحصول على الخبز، والماء والسكر، ونقع الخبز في النهار حتى يهش ويطرى في الليل، ثم ترتيب الخروج المنتظم هذا بعد منتصف الليل.. إيقاع حياة يومية منضبطة، وإن تكن معكوسة، ولا بد أنه صار إيقاعا داخليا لديها كانقلاب إيقاعات كثيرة داخل نفسها، كنت أفكر في ذلك عندما عدنا نمر بفاتيهور سيكري من جديد، وترامت إلينا أصوات آتية مما وراء البوابة الكبيرة، كأن لعبًا يدور في الساحة القديمة هناك، برقت في ذاكرتي صورة عجيبة من تاريخ زائل تهجس بكنه هذا اللعب، لكنني كنت خائفاً وكنت تعباً فلم أشأ أن أتوقف لمعرفة مصدر الأصوات الآتية من داخل مدينة الأشباح الغارقة في الظلام، تجاوزت سيارتنا ظلمة فاتيهور سيكري، وكانت السيارة كلما ابتعدت تقترب في خاطري تلك الصورة العجيبة من زمن تلاشى. فالإمبراطور المغولي أكبر كان يلعب الشطرنج على رقعة هائلة، مربعاتها من الشب الأسود، والمرمر الأبيض باتساع الساحة أمام القصر، وكانت بيادق اللعب من الجواري الحسان اللاتي يملأن قصره، ينقلهن مع خصمه في اللعب، بإشارة إصبع يرسلها من الشرفة الإمبراطورية، ينقلهن عرايا في غلائل شفيفة بيضاء وسوداء، صورة تشبثت بخواطري ولم تبرحني حتى دخلت في البرزخ الكائن بين الصحو والنوم، وما أغرب أنني حين غلبني النوم شاهدت مباراة شطرنج في حلم خاطف، وكانت البيادق على رقعة هائلة في ساحة ميدان كبير، تتكون من دبة، دبة بيضاء، ودبة سوداء، تتحرك في نقلات محكمة، دون أن يظهر أي أثر لأي لاعبين. ■

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي





- الطيور، ومثالها الحمام، تستطيع أن تسمع الأصوات شديدة انخفاض الذبذبة والمعروفة باسم تحت الصوتيات، والأفيال تشارك الطيور في هذه الإمكانية وتستخدمها للاتصال والتواصل. (جون دونر - الحس الفائق، الاستقبال في عالم الحيوان)
- توجه الأسد نحو الصيد فلقية فيل، فقاتله قتالا شديدا، وأفلت الأسد مثقلا يسيل دما قد جرحه الفيل بأنياه، فكان لا يستطيع أن يطلب صيدا، فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياماً لا يجدون ما يعيشون به من فضول الأسد (كليلة ودمنة)
- وهل قتل الأسد قط فيلاً؟ ومتى أكله؟ وإنه مع ذلك لربما ركله الركلة، فإما أن يقتله، وإما أن يذهب عنه هاربا في الأرض (الجاحظ - كتاب الحيوان)
- الفيل إذا وقع على جنبه لا يقدر على القيام، فتخبر الفيلة بعضها بعضا فيأتيه الفيل الكبير، يجعل خرطومه تحته وسائر الفيلة يعاونونه حتى ينتصب على قوائمه. (القزويني - عجائب المخلوقات)

الأفيال ترتوي

رئيس جامعة ناميبيا وهو يستقبلني مع زميلي المصور في مكتبه الذي يعتلي أحد تلال ويندهوك، قال معتذرا برقة كريمة: «أعتقد أنكم أول بعثة تستطلع كنز الحياة البرية في بلدنا، ليس من بلدانكم العربية فقط بل من العالم الواسع بما فيه كثير من بلدان أوروبا، ولست وحدي المهتم بمجيئكم، بل كل المعنيين في الدولة، لكننا في مرحلة بداية الحكم اللاعنصري نكاد نركع على ركبتنا من شدة الضائقة الاقتصادية، التي يغذيها البعض لإحراج النظام الجديد، إنهم يضغطون لنلجأ إلى العنف؛ فنواجه بعنف أشد، لكننا منتبهون إلى

ذلك، سنوفر لكم سيارة قوية من سيارات الجامعة مع سائق دليل من موظفينا، وسنعمل على تيسير مهمتكم، وتخفيض النفقات بأقصى ما نستطيع، في كل مكان تذهبون إليه».

عند نهاية اللقاء كان رئيس الجامعة قد هاتف سكرتيرته، وبينما كنا وقوفا نتبادل آخر كلمات المجاملة، وملتقط الصور التذكارية، طرق الباب ودخل شاب طويل رقيق الملامح والقوام، أشار إليه رئيس الجامعة بمودة قائلا: «وها هو ذا كاتشا الذي سيصحبكم في جولتكم الكبيرة».. أحسست على الفور بأن طيفا لطيفا وُجد في المكان النظيف المضيء، والموشى بلمسات لونية مبهجة، لكنني بالطبع لم أكن أتصور أن يتحول هذا الطيف إلى لغز مؤلم، إيلام اختفاء إنسان قريب، أو صار قريبا، في مجاهل الغابة.

كان مكتب رئيس الجامعة فسيحا بحيطان بيضاء، علقت عليها لوحات ذات ألوان وتشكيلات إفريقية حارة وصافية، وكان الأثاث البسيط أسود لامعا، بينما قماش المقاعد يكرر صفاء الألوان الحارة ذاتها التي في اللوحات، كان كاتشا كرئيس الجامعة أسود، ذلك السواد الخفيف على ملامح منمنمة يتسم بها أبناء الجنوب الإفريقي معظمهم، مما يستدعي الإحساس بقوة الفكرة القائلة: إن أهل هذه البلاد هم نتاج الهجرات القديمة من ساحل شرق إفريقيا، فهم يشبهون كثيرا أهل أريتيريا والصومال، بل يذهبون في ذلك عميقا؛ حتى يشبهوا أبناء النوبة في مصر، ولعل ذلك كان سر ارتياحي إليهم منذ اللحظة الأولى لوجودي بينهم، لكنه ارتياح ليس سهلا، بل يحتوي أبعادا مركبة تركيب بلدهم الذي يتشرب خواص عوالم متباينة تحيط به، صحراء كاليهاري من الشرق، والمحيط الأطلسي من الغرب، وأعماق البراري الإفريقية من الشمال والجنوب، وفي قلبه تمتزج وتمور كل هذه العوالم، مع لمسة جرمانية دقيقة، وأنيقة، تركها الاستعمار الألماني وراءه وحافظ عليها المواطنون البيض، الذين تافرقوا في هذا البلد أكثر من أي مكان آخر في الجنوب الإفريقي كله، ثم صانها بذكاء وتحضر

سياسي مناضلو جبهة سوابو، الذين تسلموا الحكم أخيراً، بعد انزياح النظام العنصري.

اقترح علينا رئيس الجامعة أن نذهب إلى الساحل عبر طريق الجبال في الغرب، ثم نتجه إلى غابة إتوشا لنصوّر الأسود، ونعود من هناك في الطريق الشرقي إلى العاصمة، وبذلك نتلامس مع الألوان العديدة للطبيعة الناميبي. ولأربع ساعات كاملة مكثت اللاندروفير بقيادة كاتشا، تشق الطريق في متاهة الوديان الحمراء البرتقالية، وتعتلي التلال والجبال الصلصالية المتماوجة بألوان بين الوردي والبني والأبيض العاجي، تضاريس سرمدية مفعمة بالغموض وضعتنا في المجهول الكوني ونحن على الأرض، ولم يكن هناك دليل أمان نتعلق به غير كاتشا الصامت والهادئ وراء عجلة القيادة، لم يتكلم إلا عندما كنا نسأله، ولم نتكلم إلا مرات قليلة، عندما كانت السيارة تخرج من مجهول عميق إلى سطح مكشوف، به شيء من معالم الحياة، واحة جبلية صغيرة، مزرعة على الطريق، أو مرعى للماشية نعبر بواباته البدائية من جذوع الأشجار بين الصخور المرتفعة. وعندما انطلقنا في طريق منبسطة بمحاذاة مزارع شاسعة لطيور النعام، تكلم كاتشا دون أن نسأله، قال: «لم تعد هناك جبال، نحن نقرب من الساحل»، ولم يبد مرتاحاً لذلك، عاود صمته، واكتشفنا في الطريق الممهدة المفضية مباشرة إلى الساحل، مدى الخوف الذي كان يجثم على صدورنا في الطريق الطويل عبر الجبال، ثم رأينا البحر، وأي بحر! إنه المحيط الأطلسي، باتساع صدره الهائل وآفاقه اللانهائية، ولطومات أمواجه العارمة وإن تهادت مترفقة بذلك الشاطئ، الإفريقي الوديع، جذبني نداء أسر للانتقال من مقعدي الخلفي لأكون إلى جوار كاتشا، إذ أحسست به كأنما ينتفض انتفاضات مكتومة مع كل خفقة من خفقات موج المحيط، صرت أنظر إلى الطبيعة ببعدين في آن واحد، أرى الوجود كما هو من حولنا، وأرى تفاعل كاتشا الخاص جداً مع هذا الوجود.. نمرٌ وسط مزارع النعام؛ فنثير الطيور العملاقة لتجري بمحاذاتنا في سرعة خارقة، فأرى اهتزاز رأس كاتشا كأنه يجاري ركض النعام، ونخترق الطريق الساحلي قرب

محمية لطيور البحر، فترفف مرتفعة مئات طيور الفيلامنجو، كاشفة عن بطون أجنحتها الحمراء الياقوتية، وأشرطة الريش الأسود الفاحم على حافة الحمرة. وألمح كتفي كاتشا تتوتران كمالو كانتا منبتي جناحين خفيين يتوقان إلى التحليق.

صادف مرورنا بالساحل، الاحتفال باستقلال ميناء بيرليتز، الذي كان خاضعا لنفوذ النظام العنصري في جنوب إفريقيا المجاورة، وكانت هناك لافتات متواضعة تحيي المناسبة، وسألت كاتشا عن المكان؛ فأخبرني بأنه على مقربة دقائق قليلة، كدت أقفز حماسا لهذه المفاجأة، وطلبت منه أن نتجه فورا إلى هناك، وصلنا بالفعل بعد دقائق، وكان الاحتفال على وشك الانطلاق في ملعب بسيط لكرة القدم.. عشرات الآلاف من الناميبيين السود كانوا هناك، كبارا وصغارا، رجالا ونساء، يملأون المدرج وأرض الملعب، يحيطون بمنصة يعتليها بعض الوزراء، وقادة النظام الجديد، وضيوف من حزب مانديلا، وكان هناك أيضا بعض الأفريكان البيض المناهضين للسياسات الاستعمارية والعنصرية، كان المواطنون وقادتهم يرتدون أفضل ما لديهم، صخب من الألوان الفرحة، لكن الشباب لم تستطع أن تخفي تواضعها وقدمها، حتى المنصة والمقاعد وتجهيزات الإذاعة كانت متواضعة أيضا، وكان الفرع الغامر يغطي رقة الحال بأعلام ناميبيا المرفرفة على الصواري، وبين الأيادي، وبالتهنئات والأغاني ورقص التظاهرات الإفريقية الموقَّع الحلو، وجدت نفسي شديد التأثر بهذه البراءة الوطنية، والتطهر السياسي، وإن كنت لم أستطع كبح التساؤل في داخلي عن المدى الذي يمكن أن تصمده هذه البراءة المدنية، وذلك التطهر السياسي، أمام إغراءات السلطة المسلحة بقوة جيش نظامي، وغوايات الحكم المدجج بنفوذ قوة رسمية. وأدهشني ألا أجد لدى كاتشا تفاعلا استثنائيا مع إيقاعات الاحتفال، كذلك الذي كان يعتريه مع تراكض النعام وتحليق الفيلامنجو وصخب المحيط، كان مسرورا نعم، لكن سروره لم يبلغ حد ذلك الطرب الداخلي الذي يهز كتفيه برفرة، أو يمايل رأسه بتنغيم، بدا مهتما أكثر من أي

شيء بالآ نضيع منه وسط الزحام، وبأن نسرع لنلحق برؤية شاطئ الفقمات عند سواكا بوند قبل انقضاء النهار.

بعد عشر ساعات كاملة بدأت من العاصمة في السادسة صباحا، وانتهت بوضع حقائبنا في الغرف التي اخترناها في فندق «أوربا» ذي الجمال الدقيق والنظافة التي تشرق في قلب سواكا بوند، بادرنا كاتشا لأول مرة بالحديث، كان يستحثنا على الإسراع إلى شاطئ الفقمات: «الساعة صارت الرابعة والنهار لم يعد فيه إلا القليل». وبينما كانت اللاندروفر تشق شوارع سواكا بوند التي تشبه لعبة ساحرة تغسل أقدامها مياه الأطلسي، لم يمعن كاتشا بانبهار مثلنا في جمال الأبنية العائدة إلى القرن التاسع عشر والمطلية بألوان فاتحة منشرة، وردية، وفيروزية، وعاجية، وليمونية، وسماوية، ولم يلتفت إلى تألق الحدائق الصغيرة على الشاطئ، بدا متطلعا بكل كيانه إلى الهدف الذي راحت تسرع نحوه السيارة.

مطر خفيف دفي كان يهطل على الساحل، كنا نتمهل ونحن نخطو على الصخور السوداء الملساء الضخمة، المؤدية إلى الرمال حيث تتجمع الفقمات، مئات الفقمات البنية الداكنة مبتلة على الرمل المبتل، تلمع رؤوسها المدورة وأجسادها البرميلية، كنا نترلق ونتعثر، أما كاتشا فكان ينتقل من صخرة إلى صخرة، بثقل وثبات لا يتناسبان وقوامه النحيف، مع خوف واضح من لطومات الموج للشاطئ التي ظل يتابعها بعينه الطارفتين بشدة مع كل لطمة، وعندما وقفنا وسط حشود الفقمات، رأيت وجه كاتشا المبتل يقطر حنانا، وهو يتأمل هذه الحيوانات المسالمة السمينة من حوله، تناغم مدهش كان يربط بين عينيه السوداوين وعيون الفقمات السوداء المدورة التي تبدو إنسانية وطفولية إلى حد بعيد، مما جعلني أتذكر مأساة هذه الكائنات بحزن مضاعف، وغضب على أثرياء الرجال والنساء الذين يتسببون في مجازر تقضي على هذا النوع من مخلوقات الله.. فمن أجل معاطف هؤلاء النسوة تنطلق في الخفاء رصاصات خاصة رفيعة من الفضة، لتردي هذه الكائنات دون أن تشوه الجلد والفراء الثمين، ومن أجل

نهم كبار السن من هؤلاء الرجال تُقتطع أعضاء ذكور الفقمات وتجفف، ثم تُصحن ويضاف مسحوقها إلى أطباق هؤلاء الأثرياء العواجيز؛ طمعا في استرجاع فحولة زائلة.. وكأن صور ما أفكر فيه كانت تمر عبر عيني كاتشا، لمحت نظراته تلمع بابتلال خفيف فسألته: «أما زالوا يقتلوننا؟»، وأجاب مع تطويحة أسف وئيدة من رأسه: «يقتلوننا».

قضينا المساء في سواكابوند، وكان ينبغي أن نتوجه إلى إتوشا في الصباح الباكر، لكن تجوالنا في المدينة الصغيرة رائعة العذوبة، وذلك الفندق الجيرماني المغمور بالزهور، والعشاء المكمل بشواء الاستاكوزا المنتقاة من الحوض الزجاجي للأسماك الحية، وتلك الموسيقى المنسابة مع ضوء الشموع في كل الأماكن، ورقة صبايا الفندق الفاتنات بألوانهن العديدة الممثلة لخليط أعراق المدينة.. كل ذلك جعلنا نمد إقامتنا يوما إضافيا، ولم يكن كاتشا سعيدا بذلك، صحيح أنه ظل شريكا لطيفا في كل لحظتنا، لكنه لم يكف أيضا عن معاتبتنا لإضاعة يوم فيما أسماه «أشياء زائدة»، وفي الفجر التالي انطلقنا بنصيحة من كاتشا إلى إتوشا «حتى نرى الحيوانات وهي نشطة قبل انتصاف النهار».

لم نشعر بثقل الساعتين ونصف على الطريق، إذ كان كاتشا يسوق بمزاج رائع، بينما تنبعث من مسجل السيارة ألحان شريط لموسيقى البوب، بإيقاعات إفريقية، وتتوالى على الطريق الذي يشق البراري بلدات وقرى وديعة ملونة. وعندما عبرنا بوابة محمية إتوشا أحسست بكاتشا وكأنه يطير، كان أول ما رأيناه سربا من الغزلان أفزعه صوت السيارة؛ ففر عابرا الطريق أمامنا قفزا، قفزات متتابعة مذهلة الارتفاع والجمال، شكلت من أجساد الغزلان الرقيقة قوسا حيا رائعاً يطير فوق الأسفلت، ويوصل ما بين العشب والعشب على جانبي الطريق. أبطأ كاتشا من سرعة السيارة على الفور، ورأيته ينظر إلى قوس الغزلان بتسامح وعطف من ينظر إلى أطفال صغار يلهون، وبدلاً من أن يقول شيئاً عن الغزلان

وجدته يتمم بصوت خفيض: «توجد هنا أفيال كثيرة.. إنها كبيرة.. كبيرة جدًا».

نزلنا في كوخ «بانجالور» من أكواخ المنطقة المسيجة في نطاق إتوشا والتي تسمى «المخيم»، وهي شاليهات لها مظهر أكواخ القبائل في الجنوب الإفريقي، أسطوانية بأسقف مخروطية من القش الكثيف، لكن قلوبها كانت عصرية تماما كالغرف الفندقية الفاخرة، مكيفة وبها ثلاجات، وحمامات أنيقة بمياه ساخنة، وباردة.. انفرد كاتشا بكوخ لشخص واحد، وأقمت أنا مع زميلي المصور في كوخ لشخصين، وكان كاتشا يحضر السيارة ليأخذنا عندما نخرج للتجول في الغابة المفتوحة وراء المنطقة المسيجة، بدا كأنه وجد نفسه أخيرا، بدا أكثر انتعاشا ومبادرة، وكان يسمح لنفسه بالغياب عنا بعض الوقت؛ ليتجول بحرية في الغابة في أثناء فترات استراحتنا، وعلى المائدة بمطعم المخيم لاحظنا أنه لم يعد يجارينا في طلب الأطباق الشائعة كالمكرونة وشرائح الاستيك والبطاطس، بل كان يطلب أطباقا ناميبية لا نعرف أسماءها، وأخبرنا في ثانيا الحديث بأن له اسمين أحدهما رسمي (كريستيان) والآخر إفريقي ينادونه به داخل القبيلة، وأن اسم كاتشا هو جزء من اسمه القبلي الذي يفضل مناداته به، وكان عندما يتسم يكشف عن أسنان رائعة التناسق، مشرقة البياض.

خلال الأيام الثلاثة التي قضيناها في إتوشا، كان كاتشا يسبقنا في الإفطار، ويذهب لإعداد اللاندروفر وتزويدها بالوقود من المحطة الملحقة بالمخيم، وما أن ننتهي من الرشقات الأخيرة من الشاي حتى يكون فوق رؤوسنا؛ لنخرج معه وننطلق بالسيارة، نعبّر بوابة المخيم الخلفية العالية، ونترك السور السلكي الشائك بارتفاع أربعة أمتار وراءنا، فنصير في قلب الغابة، ونواجه البراري الإفريقية المفتوحة، نلتقي في البداية عادة بالغزلان التي تفر من طريقنا، أو ترقبنا في التفاتة جماعية متزامنة للسرب كله إذا كنا بعيدين عنها، ثم تظهر تجمعات الحمر الوحشية التي غالبا ما تكون قريبة من تجمعات الغزلان، أو مختلطة بها

ترعى في سكينة وصمت، ونادرا ما يطلق أحدها صوته الصغير الذي يشبه سهيل
 مهر رضيع، يضحكننا لعدم تناسب الصوت مع حجم الحمار الوحشي، وقوة
 تمايز الخطوط الأخاذة على جلده.. ومع الإيغال في البراري تبدأ الزرافات في
 الظهور برؤوسها العالية فوق الأشجار التي تخفي أجسامها، وكان كاتشا يرفض
 تحريضنا للاقترب منها وإعلاء صوت محرك السيارة لتبتعد حتى نراها كاملة،
 لكنه بدلا من ذلك أخذنا إلى منطقة بعيدة رأينا فيها الزرافات دون اقتراب، كانت
 تظهر شامخة بأجسامها المرقطة، ورقابها الطويلة وسط السافانا، كأنها تطفو
 عاليا فوق العشب.. وعند تجمع كثيف لبعض أشجار الغابة توقف كاتشا، وأشار
 إلى أعلى فرأينا أضخم أعشاش يمكن تخيلها لطيور النساج، وأبصرنا محاولة
 افتراس حقيقية تقوم بها أفعى لبعض العصافير، لكننا لم نرد التوقف عند مثل هذه
 الافتراضات الصغيرة، كنا نبحث عن المفترسين الكبار، الأسود والفهود
 والتماسيح، ولم يكن كاتشا مشغولا بذلك، كان دائم الثرثرة عن الأفيال: «لابد
 سنرى فيلا.. الفيل الإفريقي كبير جدًا.. إنه عظيم.. ضخم.. حتى الأسود
 تهابه».

على الرغم من انبساط البراري الفسيحة، وانخفاض مستوى السافانا، وقلة
 الأشجار، وكثرة الأراضي التي أقحلها الجفاف، ظلت إتوشا عبر جولتنا الدائبة،
 تبدو ساحرة كونية، لا تكف عن إخراج المفاجآت من جرابها الإفريقي البري.
 قطيع جاموس يعد بالآلاف مرق أمامنا، رأينا كسيل أسود، وسط عاصفة من
 تراب الجنوب الإفريقي عميق الحمرة، سيل داهم تهرب من وجهه مذعورة حتى
 الضواري وتجمعات وحيد القرن الثقيلة، كان اندفاعا برياً كاسحا لا يرى ما
 أمامه أو ما حوله، لكنه يشم رائحة الماء على مبعدة عشرين ميلا، وقد يكون الماء
 في دولة أخرى مجاورة كبوتسوانا أو أنجولا، لكن عطش القطيع لا يعترف
 بالحدود، ولا يعبأ بها.. وبقدر ما تظهر إتوشا من مفاجآت، تظل مراوغة، وتخفي
 معالم يصعب إخفاؤها، كالأسود التي كنا نبحث عنها، والأفيال التي لم يكف
 كاتشا عن الحلم بها.



في منتصف اليوم الثالث، ومن مسافة مائتي متر، رأينا مجموعة من الأسود تهجع في ظلال بضع أشجار متجاورة، ولم نستطع الاقتراب منها؛ إذ أبدى كاثشا عدم حماس لذلك؛ متعللاً بأننا يمكن أن نتعرض للخطر في السيارة

المكشوفة مهما كانت قوية ومرتفعة، وقال: «هذه الوحوش لا أمان لها.. وهي من قريب كريهة الرائحة جدًا!» اكتفى زميلي بأخذ لقطاته عبر عدسات الزوم، وتابعت أنا الأسود بمنظار صغير، كان في حقيبة المعدات، تعجبت من الكسل المطمئن الذي يوشك أن يكون بلادة لدى هذه الكائنات الرابضة على عروش البراري. رأيتها بين هاجعة ولاطية على بطونها وجنوبها، فيما يشبه إغفاءة جامعة، ولم يكن يتحرك بينها غير لبؤة وسط أشبال يلهون بالتعارك معاً، بينما هي تلطمهم بخشونة كلما اقتربوا منها.. كان الأسد الكبير مُقعياً في سكون، ولم أستطع تبين إذا ما كان نائماً أم صاحياً؛ لأن المنظار الذي أتطلع من خلاله كان محدود القوة، لا يُظهر تفاصيل العينين، لكنه بدا مهيباً بمعرفته العظيمة، ووضع المنذر. «الزعيم نعلان» قلت ذلك وأنا أتطلع عبر المنظار، فسمعت ضحكة زميلي المصور تنطلق عالية، ولم يضحك كاتشا، فابتسمت وأنا أفكر فيما يقال عن أن الأسد الكبير يفرض هيئته في منطقة شاسعة، تصل إلى مائة ميل، وأنه ينام عشرين ساعة في اليوم ليعوض الطاقة التي يفقدها في هضم ما يلتهمه من لحوم فرائس طازجة، تقدمها إليه اللبؤة.

حتى غروب اليوم الرابع لم نر فيلاً من الأفيال، التي لم يكل كاتشا في البحث عنها، بل التي بدا أنه لا يبحث عن شيء سواها، وإن في صمت.. لم نحظ منها إلا بآثار تدل دائماً على مغادرتها للمكان الذي نصل إليه.. كتل من روثها الذي يشبه قطع حجارة ضخمة، أو كومات عظام عملاقة، وجماجم كل منها بحجم رجل.. ترجلنا نتلمس الجماجم والعظام بدهشة، وتوقف كاتشا أمامها طويلاً دون أن يمسه، أخبرنا في تأثر عميق بأن المكان هو مقبرة للأفيال، ثم أطرق طويلاً وهو يتمتم أو يهذي بأصوات خافتة أشعرتنا بالرهبة.

«ما فائدة الأفيال الإفريقية؟» سؤال بدا صغيراً عندما طُرح في مؤتمر لأنصار الحفاظ على الحياة البرية، تابعت في بريتوريا قبل رحلتي إلى ناميبيا بتسعة أشهر،

وعندما حاولت أن أجيب عنه تحيرت، كما تحير كثيرون غيري، وعادت حيرتي تطل برأسها وتكبر في إتوشا، ربما تحت تأثير الهاجس المستبد بكاتشا، وجعلتني ملازمة العظام العملاقة في مقبرة الأفيال أفكر في الجانب المعنوي لوجود مخلوق بحجم الفيل الإفريقي، الذي يعد أضخم كائن يدب على وجه الأرض. «وتهابه حتى الأسود»، ترجعت في ذهني هذه الجملة التي ردها كاتشا في انبثاقات ثرثرته المتواصلة عن الأفيال، وبينما كنا نعود في غروب اليوم الرابع من إتوشا، وفي حمرة الشفق الجليل الذي ران على الغابة، وهي تصل إلى أعماق لحظات سكونها، أحسست أنني ربما أمسك بجوهر الإجابة، فمعلومة أن الأسود تهاب الأفيال صحيحة، بل أعرف أن الأسود تتوارى عن طريق الأفيال رهبة إذا صادفتها، ولم أقرأ أو أسمع عن حالة قنص واحدة قامت بها الأسود في حضور الأفيال، وها هي ذي المسألة:

الأفيال تُرهب الأسود، والأسود تُرهب من عداها، فالرهبة العظمى في البراري تمثلها الأفيال، وهي رهبة لا تقترس أحداً، ولا تقتات بلحم أحد، فهل تلعب الأفيال دور الرادع السلمي، أو الضمير ضد إغراءات القوة لدى أباطرة الغابة من الوحوش؟ وهل يمثل وجودها ضرورة قصوى لحماية دورة الحياة من استدماء التوحش المحتمل، إن تجاوزت القوة المفترسة - بطبيعة تكوينها - حدود ضرورات الحياة وتأمين النطاق؟ أسئلة كانت تشرق داخلي مع عتمة الغروب المتكاثفة، ونحن نعود باتجاه المخيم، وأحسست لأول مرة بعمق أشواق كاتشا إلى الأفيال، ووددت لو كان الوقت نهراً للنعود ونجد في البحث عنها، هذه المخلوقات السرمدية، المتواضعة إلى حد أن أقصى مُتَعَهَا مع إسكات الجوع أن تهز أشجار خروب الشوك؛ لتسقط بعض القرون وتستمتع بها كغذاء محبب، ثمة من يتهمها لذلك بالمسؤولية عن إمكان انقراض هذا النوع من الأشجار، لكن هذه القرون وهي تمر في أمعاء الأفيال تتفسخ، لتخرج منها البذور، وبعض هذه البذور لا تُهضم، بل تلين قشرتها، ويطري قلبها، وعندما تخرج مع روث

الأفيال تكون مؤهلة تماما لإعطاء بادرآت جديدة، يمدّها السّماذ الطّبيعي الوفير من حولها بإمكانات النمو السريع، والغوص بجذورها عميقا في أرض البراري الإفريقية، فكأن الفيل لو خرّب شجرة يزرع بدلا منها عشرات الأشجار، هذه حياته، أما موته: فهو وليمة باذخة للجوارح والضواري التي تجد في جسده الهائل ما يشبعها، ويكف أذاها عن المخلوقات الأضعف لفترة طويلة، فيحلّ سلام عجيب بالغابة، وكأنها تكافئه بحداد كبير من الوداعة يليق بقوة وداعته، مخلوق هائل، أتعجب الآن كثيرا كيف يختزله بعض البشر؛ ليكون مجرد مصدر لعاج الزينة، والحلي الخفيفة!

كان لابد من مرور وقت حتى أدرك أن رؤية فيل إفريقي، إفريقي على وجه التحديد، ليست بالأمر الهين، فهذه الأفيال التي نراها مستعبدة في السيرك، أو في أعمال الحمل والجر الشاقة بجنوب وشرق آسيا، ليست فيلة إفريقية.. الفيل الإفريقي لا يروض، وعندما يُختطف ويُجبر على حياة الأسر في حدائق الحيوان يكتئب، وكثيرا ما يموت باكتئابه، أو يواصل الحياة لكنه يكف عن التكاثر في أسره.

«سيأتي.. هنا». قال كاتشا ذلك ونحن نتناول العشاء في مطعم المخيم، التفت إليه أستوضح ما يعنيه، فقال: «الفيل سيأتي». كان يستعمل مفرد الكلمة «فيل» وهو يعني الجمع، على الرغم من أن لغته الإنجليزية كانت معقولة، هزرت رأسي بالموافقة أماشيته، لكنه أصر على إيضاح ما يعنيه كلمة كلمة: «الفيل.. سيأتي.. هنا». وافقته ملاحظا ارتفاع حرارة انفعاله والتوتر الذي يرعش أصابع يديه الطويلة الرشيقة، وحمدت الله أن أيا منا في إتوشا وصلت إلى نهايتها، فقد كان مُقرّرا أن نغادر في الصباح التالي.

كنّا متعبين لأننا أمضينا اليوم كله في الغابة، دون أن نأكل، أو نشرب إلا القليل مما حملناه معنا في السيارة، ركزنا على جمع أكبر قدر من الصور ومن

الملاحظات عن حياة البراري الإفريقية في إتوشا، منذ استيقاظها في الصباح الباكر، حتى تهيؤها للرقاد، وليس النوم، فالغابة لا تنام، بل يأوي شقها النهاري، ليستيقظ شقها الليلي من اللواحم قناصي الظلمة، ومنها الأسود التي كانت تستشير فضولنا، ولم نستطع تصويرها إلا هاجعة في ظلال الأشجار نهاريًا، لم نكن مزودين بوسائل التصوير والمراقبة الليليين، إضافة لافتقارنا إلى وسائل الحماية.. عملنا لاثنتي عشرة ساعة دون توقف، لهذا انصرفنا للنوم بعد العشاء مباشرة، ولم تكن الساعة تتجاوز الثامنة، تركنا كاتشا ليذهب إلى كوخه، وذهبت مع زميلي المصور إلى كوخنا، وما هي إلا دقائق حتى استغرقنا في النعاس بكامل ملابسنا التي عدنا بها من الغابة، كم ساعة نمنا؟ حوالي ثلاث ساعات، ثم استيقظنا فزعين على صوت طرقات مجنونة على الباب، كان كاتشا في حالة من الفرح الهائج يتعجلنا صائحاً: «هيا.. هيا.. إنه هنا.. أقسم.. أقسم.. إنه هنا»، ولم يكن أمامنا إلا أن نتبعه.

قادنا كاتشا في اتجاه الشمال الغربي، نحوركن من المخيم لم نتعرف عليه من قبل، وكان هناك كثيرون من مرتادي المكان يتدفقون في الاتجاه نفسه، وهم يتحدثون عن الأفيال، التفت إلى زميلي وقلت له: «يبدو أن هناك شيئاً»، فرفع آلة التصوير التي اعتاد كمصور محترف ألا يتحرك بدونها، وعند أقصى الركن وجدنا سورا حجرياً نصف دائري، باتساع ملعب روماني، ومقاعد حجرية تحيط به، وكان الجالسون على المقاعد ينحنون على السور، كأنهم يطلون من شرفة، بينما المكان كله مغمور بضوء كشافات قوية عالية، مما يستخدم في إضاءة الملاعب ليلاً.. بدا الصمت سابعاً، وكان عدد من حراس الغابة في زيهم الكاكي والبنّي الفاتح، يلاقون القادمين وينبهونهم بأخفض درجة من الهمس ألا يصدروا صوتاً «حتى لا تفرع الحيوانات». وما إن اتخذنا أماكننا على مقعد طويل عند منتصف السور، حتى أطللنا على المفاجأة، في الأسفل كانت هناك بركة ماء كبيرة، تفتح على الغابة المتوارية وراء دغل من الأشجار الكثيفة،

والأعشاب العالية، وعلى مد البصر كانت الأضواء المترامية، تكشف قافلة من ظهور سوداء رمادية، ضخمة ومحدبة الزوايا، تتهادى بثقل مطمئن مقتربة من البركة، لحظات وانشق الدغل عن أول رأس عظيم، وخرطوم، ونابين، واكتمل ظهور أول فيل في القافلة. التفت أبحت عن كاتشا، فوجدته يقف بعيدا ذاهلا عنا وعن الوجود، يضم يديه إلى صدره وهو يتابع مجيء الأفيال.

كان عرضا حيا هائلا، استغرقني حتى نسيت كاتشا، ونسيت زميلي الذي لا بد أنه نسيني أيضا، وهو ينحني ويهرول بلا صوت متنقلا من مكان إلى مكان؛ ليجمع لقطاته من زوايا مختلفة.. ظهرت الفيلة «الأم الكبرى» أولا في هذا الموكب الليلي، ثم ظهرت الأمهات الشابات يتبعهن الصغار، وفي النهاية جاء الذكور. وكان كلما وصل فرد، ذكر أو أنثى، يواجه الفيلة الأم الكبرى، حتى تتقارب رأساهما، ثم يتباعدان، فيما يرتفع الخرطومان كأنما يتبادلان التحية، ويدور جسد الأم الكبرى كبوصلة حية هائلة بثبات وبطء، فيدور بالتوازي جسد الفيل حتى تتوقف الأم عن الدوران عند نقطة معينة، ويتوجه ليأخذ مكانه الذي حددته له على حافة الماء.. يتكرر المشهد حتى يُكتمل توزيع الأفيال حول البركة، ويكون مكان الصغار إلى جوار أمهاتهم في الصدارة، بينما الذكور في الأطراف، ودون صوت، وببطء، تتقدم الفيلة الأم من الماء وتحرك خرطومها فوقه، نسمع صوت نفخات هائلة تنظف بها سطح الماء، ثم تغمر خرطومها لتشرب، وبعد أن ترتوي تتراجع قليلا، وتطوح خرطومها عاليا، وتطلق صيحة مدوية، ماذا تقول؟ لا أحد يعرف، لكن الأمهات الشابات التاليات لها يكررن ما صنعت، ينفخن سطح الماء لتنظيفه، ولا يبادرن بالشرب، بل يدعن الصغار يشربون أولا، وعندما يتمادى صغير في اللعب بالماء بعد أن يرتوي، ينال لطمة خرطوم من أمه، حاسمة ورفيقة، توقفه، وتعيده إلى الورا، ثم تنسحب الأمهات والصغار إلى الخلف، ليتقدم الآباء والذكور أخيرا، لا ينفخون سطح الماء، بل يعبون منه مباشرة، وتمكث خراطيمهم مدلاة تشرب طويلا حتى الارتواء الذي

يعلنون عنه بالتململ، فتُعلي الأم الكبيرة خرطومها في الهواء وتطلق الصيحة لترتفع كل الرؤوس، تُرفع مائدة الماء، وتعود القبيلة كلها في تجاور لصيق حول البركة على مسافة من حافتها، لحظات سكون غامضة تطول على مرأى من الماء، كأنهم يعبرون عن الامتنان لتلك المنحة الرقاقة، ثم يتراجعون بظهورهم، كما يتراجع البشر عند انصرافهم في بلاط السلاطين والملوك، لا يولون ظهورهم للماء، حتى يتعدوا عنه مسافة، عندئذ تستدير الأم الكبيرة حول نفسها، فيستدير بموازاتها الجميع، يتوقفون جميعا في سكون جديد لبضع دقائق، ثم تتحرك الأم الكبيرة، فتتبعها الأمهات الشابات، فالصغار، فالذكور الذين يحملون ظهر القافلة.

استغرق عرض ارتواء الأفيال من الماء ساعتين ونصفا، وما إن ذهبت الظهور السوداء الرمادية العظيمة، وغاصت في دغل الأشجار، ثم غابت في البعيد، حتى حل النعاس المؤجل، واتضح التهالك.. انصرفت وسان إلى الكوخ، فوجدت زميلي قد سبقني، سألته إن كان صور جيدا، فأجابني بأنه صور كثيرا، ثم سقطنا في جب نوم عميق.

استيقظنا مبهورين الأبصار، كانت شمس الظهيرة الإفريقية تسوط الزجاج المصنفر لكوى الكوخ المستديرة قرب السقف، وهالنا أن الساعة تتجاوز الثانية عشرة، بينما كان يتوجب علينا أن نستيقظ في الساعة لتناول إفطارنا ونغادر. أين كاتشا؟ لماذا لم يمر علينا وهو يستيقظ مبكرا في كل الأحوال؟ خمس ساعات مرت، وتحولت أسئلتنا العاتبة بحلق إلى ذعر حقيقي من وجودنا في هذا البعد دون دليل، دون كاتشا، ولم تكن هناك اتصالات في هذه البراري البكر إلا عبر موجات الراديو من محطة صغيرة ملحقه بإدارة منطقة إتوشا، مخصصة لرسائل الاستغاثة، والإبلاغ عن الكوارث، وكانت هناك صعوبة في إقناع المسئول عن المحطة بأن حالتنا كارثية، أو تستدعي الاستغاثة.

.. في المساء نجحنا في الاتصال بالعاصمة «ويندهوك» ونحن مرّعون، أطبق علينا الليل دون كاتشا فلم ننم جيدا، ورحنا ننتظر الشخص الذي أخبرونا أنه سيأتي ليعيدنا إلى العاصمة في النهار التالي بعد تحقيق ضروري في واقعة الاختفاء.. كانت السيارة في مكانها أمام كوخ كاتشا الخالي، وأدلىنا بأقوالنا أمام محقق أسود نحيف صغير السن يشبه كاتشا كثيرا، ظل يحاول طمأنتنا أكثر مما كان يستجوبنا، ثم غادرنا مع من حضر ليعيدنا إلى العاصمة، وفي اللاندروفر نفسها التي كان يقودها كاتشا.

لم يظهر أثر لكاتشا حتى اليوم العاشر من أيام مكوثنا في ناميبيا، وعندما عدت أجريت اتصالات عديدة مع ويندهوك في اليوم الخامس عشر، ثم بعد شهر، شهرين، ثلاثة، وحتى أربعة أشهر لم يظهر أثر لكاتشا، ومنذ سنتين ونصف التقيت في معهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة بأستاذ زائر من جامعة ناميبيا، أخبرني بأنه يعرف حادث اختفاء كاتشا الذي لم يظهر بعدها، والذي اعتُبر في عداد المفقودين في الغابة.

على امتداد تسع سنوات مرت لم أكف عن الرجوع إلى مجموعة صور رحلة ناميبيا، أتعش بذكريات الجمال الفطري لهذا البلد العذب، لكن انتعاشي ظل يُغَيِّم؛ إذ كنت أفكر في كاتشا وقد قضى بين فكي واحد من ضواري الليل، أو كواسر النهار، تسع سنوات كان ينبغي أن تمر، لأتوقف مذهولا الآن أمام صورتين مررت عليهما من قبل مئات المرات دون انتباه، صورتان التقطتهما زميلي في أثناء ورود الأفيال لبركة الماء في إتوشا:

الصورة الأولى تظهر فيها مجموعة الأفيال بوجوهها وهي تتراجع عن البركة في أعقاب ارتوائها، وعددها اثنان وعشرون.

والصورة الثانية لمجموعة الأفيال نفسها وقد استدارت تأهباً للانصراف، لكن عددها هذه المرة يبلغ ثلاثة وعشرين.

أعيد وأكرر العد، وأستعين بعدسة مكبرة لأتحاشي الخطأ، فأتيقن أن هناك فيلا زائدا، وأن هذا الفيل الزائد يقع ضمن مجموعة الذكور، في الطرف الأيمن من قوس الأفيال العائدة إلى الغابة، ولا أجسد تفسيراً لذلك إلا ما يُقال عن عيوب «الآرتيفاكث» في صناعة الصور، لكن زميلي المصور ينكر ذلك بانفعال المحترف، المحترف الذي لا يقبل تشكيكا في خبرته المهنية الكبيرة. ■

مطابع الشروق

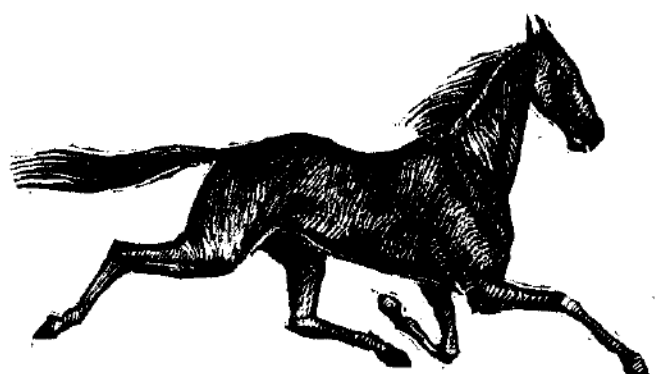
القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



المحتويات

٥	لمحتان
٧	غزلان
٩	مُهر
١١	جِراء
١٣	جنادب نحاسية
٢٣	كان يطارد فراشة في البحر
٣١	سمكات أرجوانية صغيرة
٣٧	بغال
٤٣	اكتئاب الخيول
٥٣	جواميس
٥٧	أرانب مسحورة
٦٩	على ظهر فيل
٧٩	الأتُن
٩٣	دبية بيضاء.. دبية سوداء
١٠٩	الأفيال ترتوي

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي





محمد المخزنجي

- ولد في المنصورة وتخرج من كلية الطب بجامعةها وتخصص في الطب النفسي بأوكرانيا.
- بعد اثني عشر عاما هجر العمل الطبي وتوجه للصحافة الثقافية وهو الآن مستشار تحرير مجلة العربي في القاهرة.
- له سبعة كتب قصصية ورواية ريبورتاج قصصي عن كارثة تشيرنوبيل وكتابان في الأدب البيئي للأطفال وكتاب علمي عن الطب البديل وكتاب إلكتروني في أدب الرحلات.
- صدرت قصصه مترجمة ضمن مختارات عديدة وفي كتب مستقلة بالألمانية والروسية والإنجليزية وقدمت عن قصصه رسالة دكتوراه بجامعة إنديانا.
- حاز على جائزة أفضل كتاب قصصي صدر في مصر عام ١٩٩٢، وجائزة الأدب المصري لكبار الكتاب في القصة عام ٢٠٠٥.

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي



كان يجر ساقيه الميتين، وأحس بالحربة
ما زالت مستقرة بين فقرات ظهره، تنشر في عظامه
ألما وخدرا، وهو كالمجنون أو أنه جن، يسبح بذراعيه
وحدهما، يسبح مبتعدا عن نذير الزعانف السوداء التي
برزت على السطح، "أسماك القرش تجذبها رائحة الدم"،
برق في ذهنه الخاطر، فأبصر دون أن يلتفت أفواه
القروش النهمة، رأى عيونا لا تطرف،
وصفوفا مطروسة من الأسنان المثلثة الحادة تترصده لحمه.
سمع صوتا كأنه حراك مفاصل صدئة،
فاشتعل يسبح هاربا من فك سينهشه من الخلف في لحظة.
وسمع الصوت ثانية كالصفير،
فمرق طائر مدهوش يخرج من جبينه، والتفت،
التفاتة لا يعرف كيف وافته برغم كل هذا العجز المرير والرعب



عطر يا شيخ



www.ibtesama.com